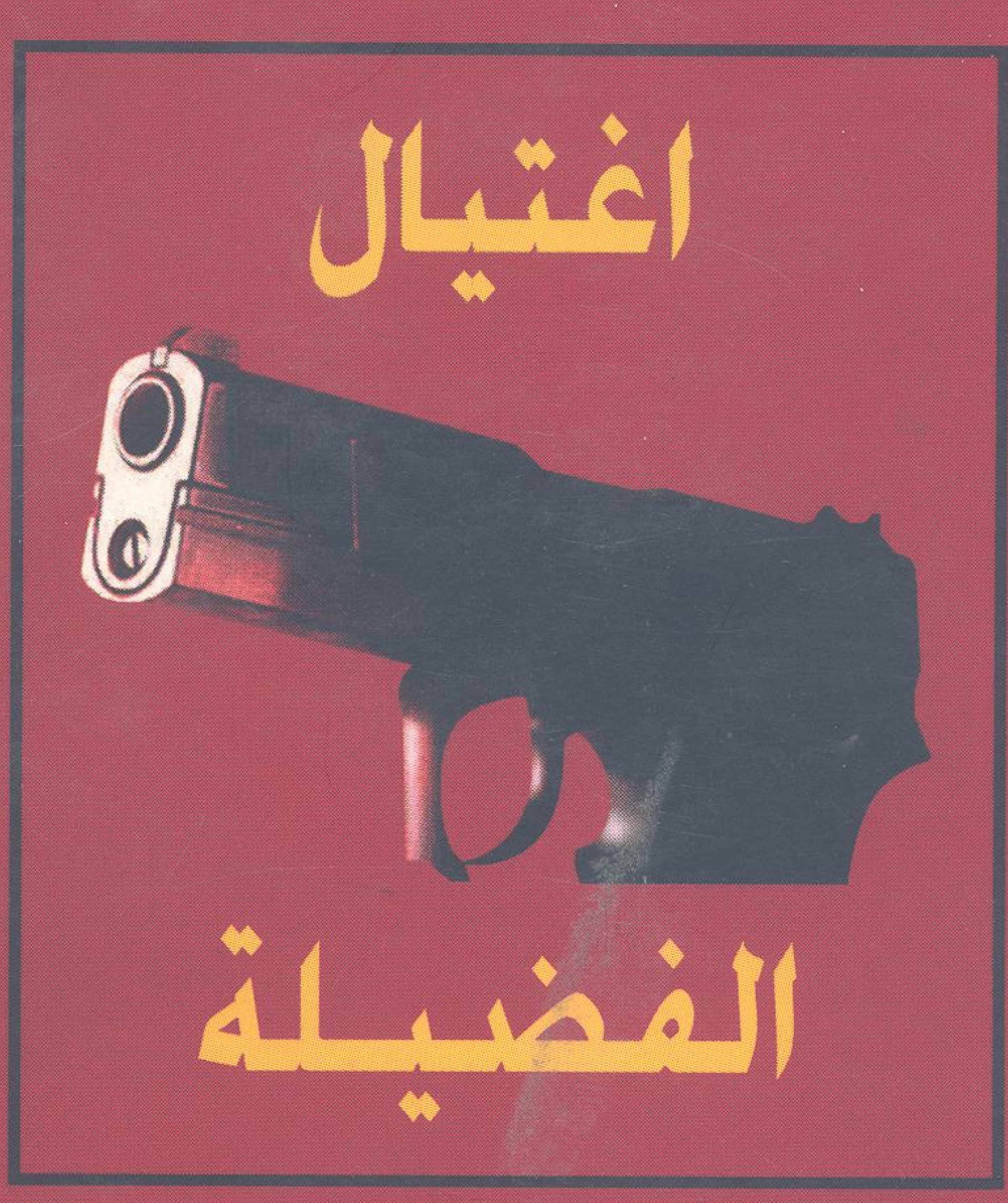
رواية بوليسية

ميلودي
حمدوشي

اغتيال



الفضيلة

ترجمة : محمد بنعبود

منشورات عكاظ

ميلودي حمدوشي

اغتيال الفضيلة

(العنوان الأصلي بالفرنسية Le Chacal Blanc)

ترجمة: محمد بنعبود

رواية بوليسية

اغتيال الفضيلة

1

من قتل الأزعر؟ من تجرأ على قتل هذا الكاتب ذي الأربعين سنة؟ من اقترف هذا الفعل الذميم الصادم القاسي؟

كان الأزعر، الكاتب ذو الطعم البروميثي، خليطاً من البساطة ومن الهدوء. كان، وهو الوديع الرابط الجأش، منتمياً لتلك الكائنات التي اختارت أن تكون شديدة الوضوح.

كان الأزعر – في عالم أفسدت فيه الخديعةُ الضمائرَ – قد ظل متشبثاً بجذوة الأمل، مغذياً التوهم بعالم أفضل. كان ينشد الفضيلة ويذم الخَوَر ويناصب الميوعةَ العداءَ ويقف في وجه الجبن.

كان هذا الرجل، الجميل كربيع المغرب والضئيل في حجمه، يحمل العالم على كاهله. كان يرزح تحت الانفعال والحزن، تحت القلق والألم.

وكي يتحدث عن المرارات وحالات الضلال، اختار الخيال. وحتى يشهر بالإفساد الذي يقْرِض القيم، أجهد نفسه في بذر شتائل الطيبة في القلوب التي تُرِكت منذورة للبوار.

من كانت له المصلحة في إسكات هذا الصوت؟ هكذا تساءل مع نفسه الضابطُ البكري الذي وضع مع الفرقة القضائية الرابعة التي يرأسها، رهن إشارة رئيس الأمن الإقليمي للقنيطرة.

أقعى الضابط كي يفحص بتمعن ظرف رصاصة 7,65. أطلقت من مسدس من نوع ف.ن، بماسورة قصيرة، عثر عليه في راحة الكف اليمنى للجثة العارية تماماً والموضوعة على الأرض، على قدم السرير في غرفة نومه. ومن الغريب أنه لم يتم العثور على الرصاصة.

عندما أُخطر البكري من طرف قاعة المواصلات، في تمام الساعة الثامنة وخمس دقائق، بعد اكتشاف الجثة، انتقل رفقة الفرقة الرابعة إلى مكان الجريمة. وبعد ثوان، التحق به مفتشو التشخيص القضائي.

كانت الفيلا الصغيرة، المكونة من بناية أرضية، والتي كان يقطنها الأزعر، تقع في شارع المعمورة، غير بعيد عن محطة قطار عاصمة الغرب.

فحص البكري الحديقة وجدران المطبخ التي تفصل بين غرف الفيلا الأربع.

عند المدخل، يميناً، غرفة نوم على شيء من عتمة، لكنها على قدر كاف من البهجة، كي تستجلب الملائكة والأحلام.

وعلى اليسار، مكتبة مترعة بالأعمال الكلاسيكية وبالروايات الحديثة. وعلى طاولة، في الوسط، كانت موضوعةً

مطبوعات لكتاب مبتدئين، أو تبحث عن ناشر (كان الأزعر عضواً في عدد كبير من لجان القراءة).

وفي العمق، صالون متواضع، وغرفة أصدقاء ومطبخ.

«كل شيء هنا يتحدث، كل شيء هنا مشحون برموز حية، بعلامات بارزة، بخفايا تنضح من كل مكان، بسيولِ ضوءٍ تتلألأ، وبصور مرعدة تتفجر».

القاتل المجهول لم يغير من وضع أي شيء. ربما كان اضطرابه من القوة بحيث بلبل تصميمه. كان إهاب العظمة ينضح من الجدران ويفوح من الأثاث.

كان للكاتب ذوق صارم تجاه التناسق والنظام. وقد احترم القاتل هذا الذوق متحاشياً إحداث أي تغيير في الفيلا. إن حافز المجرم لم يكن ظاهرياً هو السرقة.

اقترب البكري من الجثة وأعاد فحصها بدقة. كانت شفتا الكاتب منفرجتين قليلاً كما ليقول شيئاً ما. والسلاح الموضوع في راحة الكف اليمنى يخبر بالشيء الكثير عن القاتل: مترهبن مبتدئ أساء التصرف. أراد أن يوهم بفرضية الانتحار. أبله مسكين: ها هو ذا انتحار دون لطخة أو بركة دم.

أمر الضابط مصور التشخيص القضائي بتحضير الألبوم، ومفتشي الفرقة الرابعة بإنجاز الكروكيهات المعتادة. غير أنه سرعان ما أحجم: «لحظة، قال، أديروا الجثة». نظر مطولاً لثقب خروج الرصاصة وحرك رأسه دلالة امتعاض. ابتعد قليلاً عن

الجثة وشرع يردد الدرس الذي ألقاه مكون الباليستيك بالأكاديمية الملكية. كان يقول حرفياً تقريباً: «ثقب الولوج، وحسب مسافة إطلاق النار، يشكل انفزاراً للنسيج، وآثار احتراق ووشم بارود واستدارة تنشيف للرصاصة المقذوفة.

إن ثقب الولوج يتحدد بطرحٍ للمادة إلى الخارج، يتكوم حول محيط الثقب، عكس ثقب الخروج.

الثقب في أجساد الضحايا المقتولين بالرصاص، يكون أصغر من القذيفة، لأن الأعصاب ترتخي أثناء مرورها، ثم تنزع للعودة إلى وضعيتها الأولى.

تكاد تكون كل حالات الانتحار ناتجة عن طلقات نارية ملاصقة، في حين أن الطلقات في حالات القتل، تكون عن كثب أو عن بعد.

الطلقات الملاصقة هي التي تكون فيها فوهة الماسورة ملامسة لجسد الضحية. كل الغاز وحبات البارود تتبع المسار وتلج اللحم: فلا يكون ثمة، إذن، لا وشم ولا آثار حروق.

ينتج عن الطلقة الملاصقة انفجار للقحف، مع قذف للبقايا في كل الاتجاهات.

وإذا حصلت الطلقة داخل غرفة، كما هو الشأن بالنسبة لحالة الأزعر، تلتصق البقايا بالسقف وبالجدران وبالأثاث القريب. والحال أن لاشيء من ذلك حاصل هنا.

وإذا كانت الطلقة قد أطلقت على بعد سنتمترات من الضحية، فإنه لا يحصل انفجار في القحف وتكون ثمة آثار حروق أو وشم بارود حول ثقب الولوج. كيف يمكن تفسير ذلك؟ لأن الغاز، ببساطة، قد تشتت، جزئياً، في الهواء ولم يتمكن من الولوج إلى داخل الرأس. وهذه هي حالة الأزعر، الذي هو ضحية طلقة قريبة بواسطة سلاح ذي ماسورة قصيرة»

لقد قتل الأزعر برصاصة أطلقت بفظاظة منكرة.

ثم، وقطعاً لدابر أي شك، وسع الضابط مصحوباً بعناصر الفرقة الرابعة ويمفتشي التشخيص القضائي فحصهم للأمكنة وللحواشي وللمنافذ، بحثاً عن أية قرينة، لكن سدىً.

بعد أن رفع البكري تقريراً إلى رئيسه المباشر وإلى النيابة العامة لدى محكمة الاستئناف، واصل رفقة عناصره البحث في غرف الفيلا، وسطر، هو شخصياً، خطة عامة وأخرى تفصيلية.

لم يقدم فحص الأوراق والوثائق أي عون لفريق مشهور بفعاليته وبوثوقيته «في مدينة شكلت فيها الجرائم الدموية باستمرار، في حضن خريطة الجريمة على المستوى الوطني، فئة مستقلة. إن الغموض لهو خاصية مجتمع يحال على المماحكة وعلى السرية كلما تعلق الأمر بجريمة».

طلب الضابط رؤية خادمة القتيل صاحبة الكشف الحزين في نفس الصباح حوالي السابعة وأربعين دقيقة.

لم تستطع فاطمة البالغة من العمر أربعين سنة،

والمذهولة، حبس دموعها. كانت تستطيع بالكاد أن تفصح عن كلماتها:

– كان الأزعر لطيفاً وكريماً. نوع نادر من الرجال. كان يخشى الله، شديد البراءة، طيب القلب.

لم تكن فاطمة، وهي تخدم الأزعر، خادمة بالمعنى الحقيقي للكلمة. كانت مستخدمة يؤدي لها الأزعر أجرة وأحياناً تعويضات عن تفانيها في عملها.

لقد شغلها الكاتب، وهي النحيفة الطائشة التي لا ماضي لها، منذ خمس عشرة سنة تقريباً. وبمجرد سماعها بالأدب، انتهت بأن فهمت أن بُنَاةَ الحكايات يشكلون عشيرة ذات طقوس خاصة. الطعام بالنسبة إليهم ليس مادة تؤكل وإنما زاد روحي، وإعاشة للنفس. كم مرة كبتت الرغبة في الإعراب بصوت مرتفع عن رغبتها في الانضمام إلى هذه الطائفة، لكنها اكتفت – واقعة في شرك أحلامها – بالإلتذاذ الداخلي.

انتزعها الضابط من أحلامها.

– ما هي وضعيتك العائلية؟

– متزوجة، أم لثلاثة أطفال: ذكر وبنتان ما يزالون يتابعون دراستهم.

– ماذا يشتغل زوجك؟

– فرد من القوات المساعدة.

– هل لديك بطاقة وطنية؟

– نعم.

فأخرجت البطاقة من جيبها ومدتها للضابط.

– سيدتي، إنني أعلم أن موت الأزعر يحزنك بعمق. إن خير ما يمكن أن تفعليه لصالِح هذا الرجل الرائع هو أن تساعدي الشرطة على فك لغز هذه الجريمة.

قاطعته فاطمة بعنف.

– كيف؟

ثم انخرطت في البكاء.

انصرمت خمس أو سبع دقائق. واصل الضابط أسئلته بعد أن فسر للخادمة بأن كل شيء يشير الآن على الأقل إلى فرضية القتل العمد.

– هل تعرفين أصدقاء الأزعر؟

– لقد كان له أصدقاء كثر، يا سيدي. لا أحد منهم قادر على قتل ذبابة. كانوا كلهم يحبونه حباً حقيقياً صادقاً قوياً وصريحاً.

بعد تنهيدة طويلة، فركت الخادمة جبهتها وتمتمت:

– الله اكبر.

فتابع الضابط:

- إنا لله وإنا إليه راجعون. من يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه له.

- نعم يا سيدي. الأزعر كان من هؤلاء.

تحاشى البكري أن يطرح عليها أسئلة أخرى، من مثل ما إذا كان للكاتب صديقة قارة، وما إذا كانت حياته الجنسية متوازنة، وما إذا كان أحد أفراد عائلة فاطمة قد سبق له أن زاره، متى، ولماذا؟ الخ.

نكس هامته كما لو كان يتحدث إلى شبح، ثم سأل فاطمة:

- هل يمكنك أن تذكري لي أسماء أصدقاء الأزعر؟ أو بعضها مما تتذكرينه؟

فكرت بعض الثواني وأجابت:

- نعم.

سجل الضابط الأسماء.

«كانت كلها أسماء معروفة. كانت بينها تشابهات، تجانس ملفت: سحر الكتابة – في جَزْرِ الاستيهام ومده– الذي يـجْلد زوابع الطغاة القاتلة ، وغرائز الاسترقاق الماكرة التي يصدر عنها القماعون والمغتصبون.

هم منبتُّو الصلة بالانبطاح السائد وبالقدرية الناخرة. إن لهم نماذجهم في الفكر وفي الميول.

إنهم ينتصبون ضد عالم مبلط بالخواء، عاجٍّ بالضمائر الخابية التي لا طاقة لها سوى ذبذبات تختنق تحت جبال من البؤس. إن هذا العالم لمجرَّد من ردود الأفعال».

فجأة فكر الضابط في يد خفية، في عمل إرهابي. لكنه سرعان ما تخلى عن هذه الفكرة غير المناسبة. فعملية القتل هذه تفتقر للطابع الاحترافي، كما أن «الإرهابيين يوقعون دائماً أعمالهم، أو يعلنون مسؤوليتهم عن العملية. وأخيراً فإن ترك السلاح بمكان الجريمة لا يدع مجالاً لهذا الاحتمال: لا يضحي إرهابي أبداً بسلاح، خصوصاً إذا تعلق الأمر بمسدس في حالة جيدة».

– فاطمة، هلا حاولت الحفر أكثر في ذاكرتك.

– يعني؟

– ألا تتذكرين زائراً لا ينتمي لجماعة الأزعر؟

– والله العظيم، لم أر أبداً شخصاً غريباً.

– أشكرك. قد أحتاجك، ربما.

– أعانك الله على قطع دابر الشيطان الرجيم.

– عل الله يسمعك ويستجيب لدعائك. سيدتي الطيبة، إذا تذكرت اسماً أخبريني. أنا في مقر الشرطة القضائية.

– لن أتأخر. مع السلامة.

– بالمناسبة، هل كان الأزعر يزور صديقاً، أريد أن أقول

شخصاً يسكن بالقنيطرة؟

– لا أستطيع أن أقول لك يا سيدي. لست في الحالة التي تسمح لي بأن أجيبك. هلا أعدت طرح السؤال علي لاحقاً؟

– طبعاً. يمكنك أن تعودي لبيتك. أما زلت تسكنين بحي الخبازات؟

– نعم سيدي.

عندما انصرفت الخادمة، عاد البكري للغوص في تخميناته.

«غياب الدم حول الجثة يعتبر علامة لافتة، صارخة. لقد قتل الأزعر في مكان ما ونقل إلى مسكنه. لكن، من طرف من؟ وكيف؟ ليس بالتأكيد من طرف أحد (أو مجموعة) يسكن قريباً من هنا. النقل يتطلب آلية وسائقاً. كان هناك إذن على الأقل شخصان؛ فاعل ومساعد، أو فاعلان. ماذا عساه يكون الدافع إلى الجريمة؟ هنا تكمن كل الصعوبة ما دام الأمر يتعلق أساساً بتحديد الشعور الذي أوعز بالقتل، منبع الفعل ... إننا على علم بذلك؛ الدافع ليس هو السرقة».

على البكري، ككل ضابط شرطة، أن يستثمر الموجود لبلورة الهدف، أي النتيجة المرجوة من الفعل.

والحال انه إذا كان الهدف واحداً، فإن الدواعي هي بنفس كثرة بواعث الجريمة. فالداعي في حيثيات هذه النازلة مثلاً، قد

يكون، بنفس القدر، نذلاً وسياسياً وعاطفياً.

في جميع الأحوال، يجب استغلال كل العناصر المستخلصة من مشهد الجريمة بعقلانية. انتفض البكري، وكاد أن يفقد هدوءه عندما تذكر فجأة ميخائيل نوفاك الذي كان يعظ بهذا الاعتراض: «أنا لست مفاجأً من أن يكون ثمة منحرفون. إن الكائن البشري الذي لم يشن حرباً باطنية ضد غرائز إجرامية يستحق ان يقدّس. والخطر المحدق الذي يواجهه شخص مثل هذا، كل حياته، هو أن ينعت بأنه إنسان بقدر غير كاف »!

إن استغلال قرائن مثل هذه، يتطلب تحديد ظروف ثلاثة: الزمان والمكان وطريقة العملية. الزمن ليس محدداً بدقة، أما المكان فيطرح مشكلاً: مكان الاكتشاف أم مكان تصفية الضحية؟

ليست هذه هي المرة الأولى التي يحقق فيها البكري في قضايا ملتبسة، ولكنه وجد نفسه هذه المرة في مواجهة جريمة من نوع خاص. إن موت كاتب مثل الأزعر لا يمّحي بسرعة من الذاكرة؛ ذلك أن الكاتب، كما كان يقول نيتشه: «ليس إنساناً، وإنما متفجرات»؛ سلسلة لهب طويلة الأمد. كان لويس كلافيرتي ينعت الكتاب بهذا الوصف: «جزر صغيرة ثابتة في خضم العواصف، يسجلون، قبل أي كان، اهتزازاتها». كيف الخلاص من كابوس اليقظة هذا، حيث تتأبى الصور المتحركة على الانتظام؟.

اجتيح هذا الضابط ذو العيون الرائية المسكونة بالأشباح، والذي لا يخطئ فريسته إلا في النادر، ولأول مرة، بمشاعر الخوف والرعب.

لم يكن التقى بالأزعر سوى ثلاث مرات أو أربع. ما يزال يتراءى له شبحه يطفو على أزقة القنيطرة العارية. كانٍ رمزاً يمشي على قدمين، قوة تسير، أسطورة حية. كان يُذكِّر، من خلال ملامح شتى، بفليب أرتيير، الذي كتب: «هذه النصوص مخربة لأنها، بالتحديد، لا تأتي لتعاكس كلاماً، وإنما لتزحزحه، لترجَّه من خلال حركته الذاتية».

كان البكري، خبيرُ الجرائم الدموية، والأولُ في فوجه، والذي كان ينتهي أدقُّ عنصر لديه دائماً بالإفصاح عن كل أسراره – وريثَ رجال شرطة الفرق المتنقلة.

حفظ في الأكاديمية الملكية للشرطة، عن ظهر قلب، النظريات المفسرة للجريمة، والمقاربات التكوينية والاجتماعية والنفسية وحتى مقاربات التحليل النفسي. كان الطب الشرعي يستهويه إلى درجة أن لغة الأجساد لم تكن غريبة عنه في شيء. كان أستاذ المادة يقول له بين ابتسامتين: «لك غريزة حيوان كاسر». «هذا التأمل التحليلي العاري، المقفر، هو دعوة للشك أمام انعكاس المظاهر». كان الضابط يعلم جيداً بأن ما هو صواب ليس هو الحقيقة. إن عناصر المظهر تنتهي بالتحلل في المياه الباردة للحقيقة القضائية. وهكذا فإن قتل

الأزعر قد يفسر بهذه الفكرة اللاّزبة، غير القابلة للاختزال. كيف؟ قد يسأل ذهن فضولي؟

قد نحصل على الصواب من خلال وصف مضجر، دقيق، مرتَّبٍ للجريمة. لا شيء مؤكد أكثر من هذا التقرير الذي يمكن لأي شرطي أن ينجزه: السلاح في يد الضحية، الماسورة موجهة نحو الفك، غلاف رصاصة لم يتم العثور عليها، ساقان منفرجتان، ذراعان في وضعية مبعثرة.

قد يوهم استدلال الصواب بأن الأزعر قد أطلق الرصاص على دماغه، وحتى الفكر الصارم ذاته قد يسير في اتجاه الاعتقاد بالانتحار، بيد أن البحث اليقظ، المشبع بعلم الآثار الجنائية، سينتهي إلى قتل عمد مقنع بانتحار.

كان الضابط البكري يتمتع بذلك النوع من الصبر الخارق للعادة من خلال تركِ أفكارٍ وليدة تُفرِز في متخيله إيمانَ القلق في مواجهة الهوات السحيقة المظلمة الأكثر بعداً عن العقلنَة والأكثر عمقاً. ومن الظلال المضمحلة، كان يصوغ مُزناً وأملاً. وفي خضم التعقيد والاحتداد، كان يعرف كيف يعثر على مخارج للخلاص.

هل يُفلح هذه المرة في كشف لغز الموت العنيف لرجل كان يحمل قلبه على كفه؟ رجل لم يكن يسيء لأحد؟

صفعت هذه الفكرة الضابط مثل عاصفة رملية. حاول سدىً أن يكف عن التأوه، وأن يطرح جانباً تعاقب الهواجس

هذا. اجتاحته ارتعاشة حزن وكادت تخنقه. أجهد نفسه في إخفاء هزة الغباوة هذه، وغرق في مناجاة ذاتية لا طائل من ورائها، متقطعة وسوداوية: «لقد تناسل مجتمع كابٍ، طافح بالمشعوذين وبالأتقياء المزيفين، من نظام مزخرف بالكسور، مجتاح بالخيبات، مفلوح بالانحرافات، مسحوق بمظاهر الخمول. تفني روحُ الله وأناملُ الملائكة العتماتِ حيث تباد القيم والرؤى وحيث تقبر المثاليات والتطلعات. تحفر أخاديد البؤس على الوجه البارد لمجتمع مفرغ من المشاعر. لم يكن الأزعر سوى ظلٍّ هارب، خيال عابر، رسم على برَد، حكاية غنائية، إنارة شاطرة، روح تتأكسد، شمعة تحترق في صُقع بلا مشاعر، بلا دوي، بلا صوت، بلا انفعال. كان ممكناً للقنيطرة، المدينة المسيجة بالبحر وبالغابة، أن تكون وطناً لكافكا: تجمع سكني مشجوج يتعيش على تخوم الواقع والبرحاء.

لماذا اخترت أيها الأزعر أن تموت في هذه اللا–مدينة.»

تخلص الضابط من حواره الداخلي، وتقدم من جديد نحو الجسد، فتأمل مطولاً جثمان الكاتب. تجنب مساعداه، المفتشان الميري والرثمي إزعاجه. فهما، بعد أن اشتغلا أكثر من ثلاث سنوات تحت إمرته، يعرفان «عاداته» و«طقوسه». ويذهبان حتى إلى القول بأنه يكلم الأرواح ويحادث الجثث. ألم يجعلهما ينتبهان إلى أن الملاحظات الدقيقة تؤدي إلى اكتشاف الإجابات التي تكون قريبة، في المتناول.

يكفي فقط أن نعرف كيف نفسرها ونقدر قيمتها!

لكنه، هو، كان يتمتع بشيء آخر إضافي: ذهن فضولي، استقرائي واستنباطي، عينان متفحصتان، تكادان تكونان ناريتين، ممتِحة من الأسطورة ومن الحقيقة. وصَفَه يوماً سليم، رئيس المصلحة الإقليمية للشرطة القضائية، بأنه سنوري آدمي.

كان سليم، المهتم بمساره الإداري أكثر من اهتمامه بالإخلال بالأمن العام، لا يقْدم على أي شيء حتى لا يسيء للهرمية، وحتى يستدر رضا رؤسائه. وكان يفسر سلوكه بإرغامات الواقعية السياسية. وفي نهاية المطاف، فإنه ليست كلّ حقيقة تقال، وسادة العاصمة هؤلاء الذين يعرفون كل شيء أو يكادون، بحكم موقعهم، لا يحبون أن يكونوا شركاء، فينسحبون كل مرة يرون فيها عاصفة ترتسم في الأفق، مؤثِرين التضحية بالسذج وبصغار القوم! ماذا نخسر إن انبطحنا كسجادة؟

أنجزا عملكما وليحفظكما الله ويرعاكما كان يقول لمساعديه.

لم يكن الضابط البكري يجهل طموح رئيسه. وبالفعل، فقد كان معروفاً عن الكوميسير سليم معاناته من مرضين: مرض نفسي وآخر جسدي، وهذا بالضبط هو تعريف الفصام الذي يقدمه كارل غوسطاف يونغ (عالم نفس سويسري). صحيح أن لزوجته دخلاً في ذلك. كان سليم يحلم بأن يحتل موقع رئيسه

الذي كان يغذي بدوره الأمل غير المعلن في أن يعين مديراً. باختصار، عالم يعيش في قارة غير قابلة للترتيب، أسفل عتبة الوعي.

سلسلة من المطامع والادعاءات ومدٌّ من حالات الانحطاط يتقاطعان في محيط شاذ مُلغز.

كان البكري، متوتر الأعصاب، يؤكسد مشاعرَ الرحمة لديه على جمر الوعي. فمع نفسه، وفي خلواته، كان يتمتم. «أشهد أن الله لم يصنع هذا العالم من تضليل ودناءة، ولم ينسجه من خداع وخسة. من يعمرونه يتسابقُون بالنقائص وبالفجور. ولقد دُفع الأزعر دفعاً إلى وسط هذه العشيرة المشنوقة والتي لا مخرج منها. وكي ينسى كل شيء وينسى نفسه لم يجد سوى القريحة والاستعارة. كان له سلاح واحد هو نظم الكتابة السردية. كان يهدئ نفسه ويهدئ النفوس القليلة التي ما زالت مدثرة في وشاح الطهارة، بالكلام الجميل.»

واجتاح من جديد طيف الأزعر ذهنه.

«من جرؤ على رفع يده على حكاء الخيال هذا؟ مجنون أدب؟ مأخوذ بحمية زائدة؟ متصوف؟ مفتون يعتبر نفسه فوق العقل؟ ملهَم؟»

محتمل جدا!

ابتعد الضابط عن الجسد بخطوات صغيرة، عاقداً يديه خلف ظهره. أشار إلى مساعديه أن يحملا الجثمان وتابع

خطوه، مذهول النظر، أكمد المحيا. لم يسبق أبداً لمعاونيه أن رأوه في مثل هذه الحالة. على بعد خطوات، التفت وأمر المفتشين بالعودة إلى مقر الشرطة القضائية، وأن يحررا طلباً للتشريح وان ينتظراه. «أما أنا، قال لهم، فسأعود للمخفر راجلاً. نلتقي بعد قليل».

كان مقر الشرطة القضائية على بعد بضع مائات من الأمتار، لكن الضابط قد سلك، مع ذلك، مساراً أطول.

والحق أنه لم يكن يريد أن يذهب مباشرة إلى مقر الشرطة القضائية؛ بل كان يريد أن يدبر الصدمة، وأن يفرز الأفكار التي كانت تتخاصم في ذهنه. وجد نفسه في صراع محتدم مع الشكوك المتراكمة، اعتماداً على مادة ما تزال ضئيلة، لكنها مع ذلك متجانسة. ورغبة منه في تبديد الضباب، كان يتساءل:

«جريمة القتل هذه لا يمكن أن تكون إلا من فعل معجب أو متزهد. هذه هي الفكرة نفسها التي سبق لها، بشكل عائم، أن راودت ذهنه منذ لحظات. فالكاتب، من جهة، لم تكن له أية عداوات، ومن جهة أخرى، فإن الرسالة التي كان يذيعها في الناس لم تكن لتثير سوى حساسيات فئة محدودة من الأشخاص.

أم أن الأمر يتعلق بجريمة ارتكبها شخص لا ينتمي لفئة بعينها، أي أنه، في الآن نفسه، معجب ومتزهد؟ الكاتب، من جهته، لا يطابق لا هذا ولا ذاك، وإذن فإن أصدقاءه الذين كانوا

قد ملوا رتابة الوجود، كانوا يعيدون، بشكل طبيعي، خلق وتصويب حقيقة فظة. ما كان بإمكانهم الانتماء لا إلى فئة المعجبين ولا إلى فئة المتزهدين.

لماذا فضلت، أنت، يا البكري مهنة الشرطة على مهن اخرى، ألا تنتمي أنت أيضاً لهؤلاء المتزهدين... أو هؤلاء المعجبين... أو هؤلاء المتحمسين الجسورين الذين يتغذون من ثدي اليوطوبيا... أو من هذا الجنس الآخذ في الانقراض من أشباه الأنبياء وأشباه الملائكة في مجتمع للتماسيح؟ ألا تتابع مهمة القديسين المستنيرين، والأصفياء حسني السيرة؟ ألا تكون، بتلك الشاكلة، أحد حماة الضمير؟ ألا تكون، كذلك، استمراراً لهذه الأرواح الثملة، ولتلك الإرشادات الملتهبة التي تنشر النور ضمن مَضاءة وسط الأدغال؟ ألا تكون حفيداً لضون كيشوط تحارب طواحن الهواء؟»

عندما وصل إلى مخفر الشرطة، كان منهكاً، فتهاوى على أريكة قديمة بلون أمغر وراء مكتب: خط هاتفي، جهاز داخلي، موصول بمَقسم (ستاندار)، طاولة، خزانة بزجاج أسود، بعض الكتب، دلائل وثلاثة كراسي معدنية.

كان المكتب، الذي يقع في الطابق الأول، والمنار بكوة مستديرة تفضي إلى حديقة مهملة، ضيقاً وعادياً. ومع ذلك، ففيه كان الضابط البكري يقضي غالبية وقته، وهذه «العزلة» هي التي كانت تهبه من اللحظات الهادئة بقدر ما تهبه من لحظات الهياج.

لقد شهد هذا المكتب مرور الكبار والصغار، من له سند، ومن لا سند له غير البكاء والتأوهات.

كانت عصية عن الوصف حالاتُ وهنِ أمٍّ مهيضة الجناح، امرأة تمتح من أقدم مهنة في الدنيا، مضحّىً بها على مذبح الخبث. فصلت، قبل الأوان، عن مجتمع الناس، وزج بها في مجتمع الأفاعي.

«إن الشاعر الأكثر إلهاماً لَيعرب، أمام التعبير العاري للبؤس الإنساني، عن أزمة لغة، عن عوز في المعجم.

في مجتمع ذي قوى أنانية، تنغلق الأقواس على حيوات تعيش في ضنك، دون حماية أخرى غير الدعوات المسقية بالدموع الساخنة.

في هذه الجماعة حيث تزرع آلة اللاعقل الكدمات النفسية، كان الأزعر، الكاتب المتأكد من طهره، يعمل على طرد شياطين العتمة. فهل أدى الثمن، إذن، من حياته، على فضحه لأمور تافهة؟ هل يتعلق الأمر بجريمة جماعية؟»

فرك البكري عينيه ودعا لاجتماعٍ مساعديه الرئيسيين: الميري والرثمي، المفتشين اللذين لا يضاهيان، في الأربعين من عمرهما، ذوا تجربة، عارفان بدقائق المدينة. كان موظفا الشرطة هذان مطيعين لرئيسهما، مخلصين لوطنهما الذي يخدمانه بتفان.

أخذ الميري الكلمة وقال:

– أعتقد، سيدي، وانطلاقاً من عناصر الملاحظة، بأن الأمر يتعلق بفعل منعزل. إن إهمال السلاح، في الحقيقة، في مكان الجريمة يمكن أن يفسر، من وجهة نظري، بوصفه رسالة لا تكاد تكون مشفرة؛ فالمجرم أراد أن يقول: «لقد قتلت هذا الرجل وأسلمكم السلاح لأبرهن لكم على أن لا نية لي، البتة، في قتل أشخاص آخرين. أنا لست محترف جريمة...»

وتابع الرثمي.

– أنا أتفق كلية مع وجهة نظر زميلي. وأضيف بأن هذا الفعل المنعزل ناتج عن انتقام. على البحث أن ينطلق من محيط الكاتب؛ أن نتعرف على كل الذين كانوا يتحركون حول الضحية وأن نشرع في التحري، هذه هي النقطة الأولى.

نحن نعلم بأن الأزعر كان يعيش وحيداً مع كتبه وقلقه. كانت الخادمة فاطمة تغادر الفيلا، بانتظام، ويومياً، في الرابعة بعد الزوال، إلا يوم الأحد، يوم عطلتها.

ارتكبت الجريمة بين الرابعة بعد الزوال من يوم أمس، والسابعة وأربعين دقيقة من نهارنا هذا.

علينا، وهذه هي النقطة الثانية، أن نعيد بناء الجدول الزمني للكاتب، دقيقة بدقيقة.

وإذا سمحت، السيد الضابط، فإننا...

قاطعه الضابط:

- هيا. وهاتياني بتقرير.

فغادر المفتشان المكتب بصمت.

في نظام شرطة العالم أجمع، يلعب المخبر دوراً ذا قيمة بالغة. إن الشرطة القضائية التي نجحت في قضايا قتل، هي بالتحديد تلك التي استطاعت أن تبسط شبكة من المخبرين المنتقين حسب معايير، يعتبر أهمها معيار السرية؛ فمخبر مكشوف هو مخبر محروق. أليست الشرطة القضائية حفيدة لعساكر الإجرام؟ يقود الاستدلال إلى استنتاج مفاده انه مهما تكن احتراسات الديموقراطية، فإن المخبر بالنسبة للبوليس يبقى كالحديقة بالنسبة لنزل اسباني.

لم يكن بإمكان الميري والرثمي أن يشكلا استثناءً من ذلك؛ أي أن يتخلفا عن الذهاب للبحث عن هؤلاء المساعدين الغاليين.

كان مخبر المنطقة، موسى، يكنى «الخادم»، ويُتلى بمتدرب لم يُثبَّتْ، غيرةً أكثر منه احتياطاً. كانت مصالح الأمن تشن على بعضها البعض حروباً داخلية تتمظهر اكثر ما تتمظهر في الرغبة في الامتلاك الخاص لكل معلومة. فبسبب التنافس، كان الحصول على معلومة واستغلالها، يزيد في قيمته عن قيمة إنجاز سريع لفرقة قضائية او فرقة جنائية.

كان المفتشان اللذان يتفاهمان مثل نشالين في سوق، ذوَي عزيمة وشجاعين. كانت سنتاهما الأوليان في الشرطة

أكثر صعوبة؛ فقد كانا، عقب تخرجهما، مقودين من طرف رئيس عجوز منهك ذي تقنيات عتيقة ترتكز على الدس. فكادا ييأسان لولا أن عين البكري على رأس الفرقة. كان رجلاً مقداماً، نزيهاً وعملياً؛ أي عكس سابقه تماماً. وسرعان ما سببت له مميزاته هذه عداوات، لكن إيمانه القوي بواجبه مكنه من الشجاعة الكافية ليصمد في وجه كل الهجومات.

استعاد الميري والرثمي ثقتهما ، وطفقا يقولان بأنه ما دام ثمة رجال مثل البكري، فلا خطر على المشروعية. لقد جعل حبهما لعملهما منهما رجلين نابغين، مبدعين وذوي خيال خصب. فدفعت بهما عزتهما إلى العزوف عن القيام بتحقيقات غير ذات قيمة.

أدرك الضابط منذ اللقاء الأول نزاهة مساعديه المباشرين وإحساسهما العالي بواجبهما، فعمل على تجنب كل كلام غير لائق أو جارح. وعلى أي حال فإن الرئيس – كان يسر – هو الذي تقبل سلطته عن رضىً.

قدر المفتشان سلوك الضابط إلى درجة أنهما أجهدا نفسيهما كي يجوِّدا تحقيقاتهما وكي يحققا المستحيل.

قال المفتش الميري، الجالس إلى مقود سيارة السيينا السوداء، كما ليكسر الصمت، لزميله:

– رغم كل شيء، فقتل الأزعر ملتبس.

أجاب الرثمي، متفكراً:

– كل الجرائم ملتبسة.

فعقب الميري:

– أريد أن أقول بأن عملية القتل ليس لها، على ما يبدو، دوافع.

– هل نسيت ستالين وحرب الإبادة التي شنها على الشكلانيين؟ أنظر إلى كل ما يحدث في كل البلدان التي يُكْرَه فيها الفكر ويعزل ويهمش.

– هل تلمح إلى جريمة سياسية؟ الأزعر ليس مناضلاً منتمياً، ولم تعرف عنه أية أنشطة سياسية.

– هل ترى أنها جريمة دنيئة؟

– لا شيء يسمح بالخلوص إلى نتيجة مثل هذه.

– كل مخالفة للقانون ناتجة بالضرورة عن دافع. وكل الصعوبات تكمن في الوصول إليه. لا شك أن لقتل الكاتب دافعاً. الجريمة ليست مجانية. لقد كان الأزعر في عداد الشيوخ الروحانيين.

– هل أفهم من هذا انك تفضل خيط... لنقل انك تفكر في عملية إجرامية محبوكة.

– ليس بالضرورة. فأنت تعلم بان الأمر لا يتعلق في هذه المرحلة سوى بتفكير عائم.

– علينا ان نعثر على هذا الخادم.

وقفت السيينا أمام منزل صغير في حي «الخبازات». قرع الرثمي الباب ففتحت ببطء امرأة شديدة البدانة وقالت، دون ان تعير الزائر بالاً، «ليس موجوداً». أراد المفتش أن يحصل على تفاصيل أكثر فسأل المرأة البدينة عما إذا كانت تعرف متى سيعود. كان كل جوابها ان ابتسمت ابتسامة متكتمة، هي تلك الإبتسامة الخاصة بالنساء الشعبيات المجبولات على الحذر. تدخل الميري بإهاب سذاجةٍ مُدَّعاة:

– هل انت اخته؟

أجابت البدينة، دون أن تنظر نحوه:

– ألا ترى؟ التشابه صارخ!

أمسك المفتشان ضحكتهما؛ فقد كان الخادم النقيض تماماً لهذا الجبل الشحمي.

عاد الرثمي لمقعده وأدار الميري المحرك دون أي ينبس.

تغلغلت السيارة في الحي الغاص بالسكان، والذي يعد تعبيراً صارخاً عن الإنتظارات الخائبة وضحية للظروف القاسية. النميمة في هذا الحي مزدهرة؛ فزهور الحب لم تنبت البتة، مخنوقة بشوك اللعنة.

«في هذا الحي الذي لا يتصور له مستقبل، تعيش على إيقاع الإلتباسات، النميمةُ والعنف والمشاجرات والخداع والرياء. إن

هذا الحي المسكون بكثير من الرذائل وبقليل من الفضائل، يوفر فرجة حي ساخر، هازئ، بمعنيَيْ الكلمة معاً: الحقيقي والمجازي.

طرقات بأرصفة سوداء تنبعث منها روائح كريهة ونظراتٌ مُهدِّدة تُفرغ أطناناً من الكراهية ومن الحرمان.

في هذه الأزقة الشبيهة بالأدغال، ينضح الكره من مسام الأمعاء ويُعرب الحقد عن نفسه، عاكساً جوا داخلياً، اصطلاءً غير مرئي للغثيان وللكوابيس العنيدة وللإختلاجات الباطنية التي لا اسم لها.

«عش زاخر للجريمة المنظمة»، فكر الميري.

تابعت السينا طريقها وهي تشهق وتقاوم وتحشرج وتصدر هديراً مع محاولة مضاعفة السرعة، مخترقة جمهرة غير مؤدبة ذات ذهنية ضيقة وأفكار محدودة، تنتشر على طول الممرات وتتمدد إلى أن تطفح على قارعة الطريق.

فجأة، وعلى الجانب الآخر من شارع الأبطال، أرسلت امرأة صرخات حادة متقطعة بطلب النجدة. «لقد سلبت حافظة نقودها»، أكد أحد المارة. قفز المفتشان بسرعة من السيارة وتوجها نحو الضحية.

وسط دموعها ونحيبها، قدمت المرأة التي ترتدي ملابس أوربية وصفاً للجاني الملعون. وأمام تلاحق الأسئلة عن المبلغ وعن فئات النقود ومصدرها، صرحت الضحية المزعومة،

منزعجة، للمفتشين بأنها لم تكن لها أية نية في الإبلاغ، مضيفة بأن «هذا اللقيط سيؤدي الثمن يوم الحساب من دمه ولحمه، وليفني الله امثاله الذين هم بذور للشر وأصول للخطيئة».

وعندما سألها المفتشان عن وظيفتها، انفجرت من جديد باكية متحاشية بذلك ان تجيب عن السؤال. لا أحد كان في حاجة إلى شروح إضافية. لم تحسن المرأة الشابة ادعاء السرقة. تقهقرت، وذابت في الجمهور.

أدير محرك السيينا من جديد وطفق الرثمي يفكر: «هل يمكننا العيش في حي الخبازات دون ان نلطخ، أي سالمين من الشرور؟ في هذه البقعة يعيش الإخوة والأخوات المحرومون في عتمة لا نهائية، يَفلَحون الكراهية والحقد والمرارة، يستنشقون الرذائل ويغثون بالإنحدارات. ليس لهم من إرث سوى العطالة التي تقرأ على وجوههم المنطفئة والتي تفطر أرواحهم الذابلة وتشق قلوبهم المشروخة...»

انتزع الميري – الذي كاد أن يصيب طفلاً انقذف فجأة في عرض الطريق – زميله من هذا الصمت:

– ها نحن عاجزان عن الإعراب عن إحساس خاص بمغامرة.

– أجل. خصوصاً في هذا الحي الذي لم يسبق للأرواح الطاهرة أن زارته.

أجاب الرثمي بلا مبالاة.

ثم دلفت السيارة في طريق نثرت عليه حفر ظاهرة، وتوقفت أمام دار قصيرة بباب صغير.

أوقف الميري المحرك وترجل متبوعاً بالرثمي. ثلاث دقات، هي بمثابة كلمة سر، فانفتح الباب. كانت المرأة التي استقبلتهما بابتسامة عريضة شابة سمراء بعيون كستنائية وشعر أسود منسدل على كتفيها مثل عرف.

دعت المفتشيْن للدخول والجلوس في صالون صغير مؤثث بذوق جيد. سألتهما إن كانا يرغبان في مشروب. شكراها ومرا مباشرة إلى الموضوع:

– هل تعرفين الأزعر؟

أجابت مشدوهة:

– لا، من يكون؟

عقب الرثمي:

– هو كاتب معروف في مدن اخرى أكثر مما هو معروف في القنيطرة.

وضعت المرأة الشابة كفها اليمنى على خدها وثنت ساقيها أرضاً ثم قالت:

– هذه المدينة هي ملتقى الطبائع الشطارية، تَتَابع للأحداث المضحكة. لعن الله الشيطان.

صمتت لثوان قبل أن تواصل:

- ماذا تريدان مني؟

تردد الرثمي للحظة. بدا وكانه يبحث عن كلمات لإدراج موضوع الزيارة. أغاثه الميري:

- أنت تعلمين اننا نقدرك لما تتصفين به من شجاعة ومن حسٍّ صداقة. نحن نعلم أنك تمارسين التهريب، ليس كسبيل للإغتناء وإنما كوسيلة لكسب لقمة العيش. نحن لسنا في بيتك الآن لضبط مخالفة وإنما لنطلب منك خدمة. فاطمة، خادمة المرحوم الأزعر، تقطن قريباً من هنا. نطلب منك أن تراقبيها وأن تحصلي على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن علاقاتها وزياراتها وطريقة عيشها... وأن تتصلي بنا على الرقم المعتاد.

- هل تشكان فيها؟.

- ومن يدري؟ أنت يا عائشة ذكية بما يكفي كي تفهمي. إننا نشكرك مسبقاً على تعاونك.

ثم انتصب الرجلان واقفين. رافقتهما عائشة إلى الباب وهي تعدهما بأن تقوم بما تستطيع حتى تجمع المعلومات المطلوبة في أدق تفاصيلها.

انحنى المفتشان لهذه الكلمات المتصنعة المتلاطفة دون أن يشدا، مع ذلك، على كفها.

استطاعت السيارة أن تشق بصعوبة طريقها وسط هذا المد الآدمي.

«في حي الفقراء، يشكل الهذر المؤذي خبزاً يومياً، طبق المقاومة في مجتمع الواهمين الذي يخنق اكتئابه بضربات حرمان واستيهام ومعاناة.

يتفسخ الناس في متاهات الرغبة البلهاء والعدوان الحقير. يؤججون الكراهية بتعابير غزيرة، نزوية، مرتعشة وموروثة.»

والأزعر؟ هل كان ضحية لهؤلاء الأنذال الذين يعيشون في المستنقعات على هامش الفضيلة؟ في كتاب «الخلق، النشيد الأول» نقرأ «تظل الجموع تحت نير الشهوة والجهل، وإذن تحت إمبراطورية الغلمة واللذة والشره واللاوعي والغفوة».

هذه الجموع تفتقر، فطرياً، للإهتزازات الروحية.

هل ينتمي قاتل الأزعر إلى هذه الشرذمة من الحمقى الملفوفين بالشهوة والمسيجين بالجهل؟ هل يكون مقنعاً وراء صور مختلفة؟

صور الصمم شتى، وأقبحها أصم لا يريد ان يسمع. كان صوت الأزعر ما يزال مسموعاً في اللحظة التي كان رجال الشرطة يجرون المعاينة. لم تكن ثمة أدنى آثار لمقاومة. هل يمكن لكائن بشري أن يستسلم للقتل دون أن يبدي مقاومة؟

كان الشرطيان يتخيلان، صامتين، مشهد القتل المرعب. كانت عادتهما عندما يواجهان قضية خطيرة أن يفكرا دون تبادل للحديث متحاشيين التأثير الذاتي. وهذه المرة، كادا أن يخرقا القاعدة وهما يتواجهان، بعجالة، مع أنه «أمام

الوضوح الكامل، لا أحد ملزم».

هل كان القاتل إلى تلك الدرجة من البلادة أم من الذكاء إذْ أغفل أداة الجريمة ولم يحرك شيئاً من مكانه؟

ألم يسمعا، يوماً، الطبيب الشرعي يقرع آذانهم، بمناسبة تشريح أجراه، قائلاً: «وجود السلاح بكف الضحية، مهما تكن وجاهة وضعيته، لا يعد البتة دليل انتحار.» لكن لِمَ نقل هذا السلاح الذي استعمل في القتل مع الجثة وأهمل؟

«وبالنتيجة، فإن كل شيء يسمح بالاعتقاد بأن العناصر المجمعة لا تتلاءم مع عملية انتحار، كما ان لا أحد يريد للبحث أن ينتهي وسط الضباب».

2

في هذا الحان – الذي سماه مرتادوه بالسقيفة الكبرى – والواقع في قلب القنيطرة، تتناكب طغمة من الدخلاء لا يجمع بينهم إلا قاسم مشترك واحد: طلب متعة من الدرجة الدنيا، صخب ليلي لا اسم له، غير قابل للتسكين ونحيبي.

تلخص السقيفة الكبرى كل ديكور مدينة شوهاء، وتجلي بوضوح كاملٍ صورةَ ساكنةٍ مقوسة، حيث يصبح مطارد الفريسة فريسة والفريسة مطارداً.

عالم مغلق، رق مخطوط بالرمادي حيث ترسِل أعقاب السجائر المسحوقة أو نصف المنطفئة أدخنة تنسج غماماً كثيفاً. يصير الحان نفقاً معتماً، مساراً محزوناً، لحداً محذوراً على الملائكة.

في مدينة بلا طعم، يغدو الحان مكاناً تجنح فيه مزق آدمية وتتبخر الاعتمالات.

السقيفة الكبرى مكان للنسيان، فضاء بلا معالم تنسد فيه الأقواس على حيوات مضنكة. إنه كتاب نواح ملتهب، رغبات غير مشبعة وأحلام مجهضة.

الحان جماعة نحل تطن، غير قادرة على كتم أناتها وآلامها المحفورة بجروح لا تندمل أبداً، وبانكسارات مفتوحة على الدوام.

يستهلك الناس ذواتهم أثناء صحوهم في ترصد حالات سعادتهم المسحوقة ولحظات انشراحهم الموءودة. ينقشون استيهاماتهم المرضوضة وذكرياتهم المدفونة وهي حية ما تزال.

في الحان تبسط غيوم الشقاء أجنحتها وتحلق مصوتة. وتنشر الأوهام، في موجات متلاحقة، أرديتها على السقيفة الكبرى التي تصبح فجأة واحة في بيداء، سفينة في محيط، رحلة بحرية منطلقة بفعل النزوة، مغارة عنكبوت تسجن كلاماً مفخماً، مرحلة يُطوى فيها الزمن ويُبسط.

البعض يشيع أكاذيب مرضية، والبعض الآخر يدندن بأغان جنسية، مشدودين، في عمق السقيفة الكبرى، ببنات هوى يفجرن الرغبة بملابسهن المثيرة.

الحياة زائلة والليل قصير

لو حظينا بمدة أطول للشهوة

لو ضحينا بالاحتقار

لو سكّنا ظمأ الرغبة لما كان ثمة شر

لَوَهَبت أجسادُنا المسكونة بالشقاء لنفسها مهلة

مقاطع حياة تتجمع وتنعقد

أيتها الغابة! أريني وحشك المضحك

أسنان المنشار تحفر أثلاماً على جسدك المقرور

دم جروحك يروي أغصانك الخضراء

عبرات جذورك تنير السبيل للهائمين

أيتها الغابة! التي تئن، هلا مكنتنا من لذائذ الحب!

وبذلك يصبح الحان مسحقة للشقاء، مكاناً مسوراً للذة السكرانة. يندس فيه ابليس وأبناؤه مترعين شهوةً، فينشدون بصوت حاد سمفونية الإغتلام الثملة. تنقذف الهلوسات في قفزات مفاجئة مشرِّحة الكآبات والوساوس والنواهي، قبل ان تتحلل في الفناء الأرضي.

كان رجل في الخمسين، وهو يتنقل بين النور والعتمة، يرج الحبال الأغن لآلة العود، وينهر بلطف شبحاً فضاً قاسياً، ثم يؤول إلى أنات مقطوعة بالدموع. كف عن ذلك فجأة وكأن طاقته قد خانته، ومد يده إلى كأس نبيذ أحمر جرعه وتابع الوشوشة بشكواه الحزينة التي كانت برتابتها تشبه، بشكل غريب، دعاء مأتمياً.

نشيد إلى التي ترقد في قلب الأرض

أراك في أحضان الملائكة

في ذاكرتي، أنت تولدين من جديد كل يوم

كنت تلتمسين قليلاً من حب

ولم تحظي إلا بسراب

كنت تلاطفين هذا الحلم، ثم زحزحته

في خضم محيط هائج بلا ضفاف

لم تحظي بغير الخيبة والخراب

عاشقة للسعادة، لم تستشعري في يومٍ بشرى

شرعت قلبك لوحش كاسر

وحده « ا.ل »، الذي هو ملكك، يعلم انك ما عدت ها هنا

ما يزال نَفَسُكِ يهدهده

ونظرتك تداعبه

وحبك يلاطفه

ويشعر بأناملك ترتعش

استريحي بقلب الأرض

فأبداً « ا.ل »، الذي هو ملكك، يفكر فيك.

كان ذو الخمسين، بحاجبه الكثيف وبشفتيه الدقيقتين يشرب كأساً إثر أخرى. وقف مترنحاً ووضع آلة عوده ثم توجه ليتكئ بمرفقه على الكونتوار. ألقى بنظرة منهكة على النادلة

خلف الكونتوار. وهي شابة شقراء هيفاء، دائمة الإبتسام جنحت في السقيفة الكبرى. صعد بصعوبة ليجلس على كرسي حان عال، مستعيناً بيديه ورجليه كما لو كان يتسلق حبلاً بعقد. تململ الكرسي لثوان قبل أن يستقر.

كان المغني مسحوقاً عملياً، غير انه ظل صامتاً للحظة. طلب كأس نبيذ معصور، ومثل زنبور طفق يدندن ببيتين شعريين من قصيدة لأدريان أدول.

بين ليلتين، يعشش يوم

أحياناً طويل، وأخرى قصير...

أراد أن يستمر، لكن الذاكرة ما عادت تسعفه. غرق في هذيانات تقارب الجنون. كان يحادث نفسه ويتفرس في أشباح ويناقش أطيافاً، ثم جرع كأسه دفعة واحدة وطلب أخرى. بعد ذلك اجتاحته الهذيانات والكلام الخرف والأشباح العنيدة والوساوس المتتالية، من جديد، فأضحى كما لو كان في بركان حامي الوطيس.

كانت الفتاة تنظر محاولة استكناه الأهوال التي تخنق هذا الرجل ذا الطباع الغريبة، والذي يغني من أجل المتعة لا غير.

إن حياة هذا الرجل مضبوطة مثل ساعة، لاحظت الفتاة.

يلج السقيفة الكبرى عند مقدم الظلام حاملاً آلة العود في يده، ثم يجلس على مقعد ويشرع في ضبط أوتار آلته ويأخذ،

بلا انقطاع، في إنشاد أغان تحكي عن حالات حبور فانية وعن حالات استمتاع هارية وعن حالات حب خائبة.

بعد ذلك، وعندما يخرق الكحول غشاء الذهن، يتحول ويغير طبعه. يدعو الأرواح إلى رحلة مشؤومة. يشرع في نفث العذابات والتمزقات الداخلية. يأخذ في ترتيل نواحات ضاغطة في شكل غناء رتيب. يتخذ صوته أحياناً طابعاً لطيفاً كما لو كان يخاطب كائنات غير مرئية، ويتخذ أحياناً أخرى طابعاً معنفاً كما لو كان يوبخ دخلاء غير مرغوب فيهم.

كلما كان يفرط في الشراب، كان يصبح أقل حذراً في كلامه. كان يتحرر شيئاً فشيئاً من القيود ومن الكلام المحترم والأعراف. يزيح عنه القناع. كان يعري نفسه ويعري الآخرين. كانت شفتاه تتقلصان وتتدحرج عليه حبات عرق ضخمة، فيرتعش ويشرع يهذر. كان يقمع دموعه ويلعق شفتيه.

كانت النادلة الشابة ترصد، في العتمة، المغني وتقول لنفسها : «هو يجرؤ على الأقل، على عرض جزء من روحه دون تكلف. يلفظ لظىً يحرق أمعاءه. يلقي بشقاء يعصر قلبه. يعرب بواسطة ارتعاشات عن نار داخلية ملتهمة.

هل ينتمي لتلك المجموعة من الدراويش المتجولين الذين لا يزمجرون إلا ارتعاداً على حافة العدم؟ أم أنه عضو في تلك الطوائف التي لا تنتشر سوى في حلبات القسوة والتمزق والذل؟ أم لعله ربي من طرف قطيع الملائكة السود في مجتمع يبحث

عن نفسه، رازحاً تحت وطأة الأكاذيب، مشمولاً باللعنة، مغموراً بالوعود الكاذبة، متروكاً تحت رحمة أقوام خبثاء؟

هو شبيهي! ضائع في أزقة الوجود، ممزق، محقّرٌ، أهمله النور وسحقه سياج المرارة، يحضن الكآبة والتقزز.

نحن ننتمي ربما لنفس المحتد. لعنة الزمن. فاكهة مرة لعلاقة. شذوذ عن بنية قيم. معاناة خانقة. نجل للرعب».

كانت الفتاة الشابة التي لا يعرف عنها إلا النزر القليل (كانت بالأحرى متكتمة، وهو ما كان يظهر من إهابها)، تعيش بطريقة غير شرعية مع مخبر الفرقة الرابعة. كان الضابط البكري ومساعداه، طبعاً، قد أعْلِموا بذلك في حينه، إذ أخبرهما الخادم الذي – رغبة منه في الحصول على ثقة مشغليه المطلقة – لم يتردد في «التبليغ عن نفسه» بنفسه!

مقابل الإخلاص، بالفعل، هو التضحية. ولم يكن المخبر يكف عن مضاعفة الإشارات كي يحتفظ بمكانه. كانت الفرقة الرابعة تعرف كل شي، أو تكاد، عن هذا الرجل. كانت على علم بالظروف التي تعرف فيها على الفتاة في القطار السريع الذي يربط بين طنجة والرباط. وكانت تعلم أيضاً ان «الجاسوس» سرعان ما أغرم بها، وقام بكل شيء كي تعيش عيشة راضية. وصل به الأمر حد ان اكترى لها فيلا صغيرة بالمهدية، وهي مدينة صغيرة ساحلية تقع على بعد فراسخ من القنيطرة. ولم يكن يذهب عند أخته بحي الخبازات إلا نهاراً.

كل مساء، عند الإغلاق، كان الخادم يحضر إلى السقيفة الكبرى كي «يسترجع» محبوبته.

هذا المساء، عندما لمحت الفتاة عشيقها، أشارت عليه بالإقتراب ووشوشت، عيناها مثبتتان على الرجل ذي آلة العود:

– هل تعرفه؟

أدار الرجل رأسه، محاذراً، وقال بصوت خفيظ:

– أجل أعرفه، ما امره؟

– سأقول لك لاحقاً.

في سيارة الأونو التي كانت تتسلل مثل فأرة، كان الصديقان يتبادلان المعلومات عن الدخيل المكشوف الساعي إلى تحليق غنائي. قال الخادم بنبرة مرارة: «كان هذا الرجل يعيش مثل زوج مع فرنسية. لم يكن له بالقنيطرة لا أصدقاء ولا عشرة. كتوماً وحذراً، كان يعيش حياة متزهدة حتى اليوم الذي تخلت عنه صديقته، فأهمل كل شيء، بما في ذلك أعماله التي كانت، حسب ما يقال، مزدهرة. منذئذ شرع يغني عن الخُلف وعن عماء البصيرة والأوهام وحالات الدوار والوساوس...»

ثم صمت.

كانت الفتاة التي تنصت إليه بانتباه تريد أن تعرف المزيد عن الموضوع، لكن صديقها، على ما يبدو، لم تكن له أية رغبة في المواصلة.

– ربما كان – قالت – ينظر للأشياء بطريقة أخرى!

– ربما، أجاب بهدوء. فإجهاد النفس في البحث عن كوابيس هو أيضاً طريقة أخرى في حكي ما يشعر به المرء من قلق لأشباح غير مبالين.

– أتفق معك، تابعت الفتاة. إنه رجل متفرد. من إنشاد السعادة ينقلب إلى العاصفة. يجبر نفسه على الحلم بامرأة غائبة، بأسلوب مترع شعرية وحزناً. يستدفئ بنار الحزن، فتحت سرير الغنائية ترقد، ربما، الحقيقة.

– ربما، عقب الخادم. فهذا الرجل هو مستودعٍ جراح، يتمزق في عوالم محزنة. هل بإمكانك أن تعيدي حرفياً كلماته الجميلة؟

– حتى أنني قد حفظت عن ظهر قلب بعض المقاطع من نشيده المهدى لتلك الراقدة في قلب الأرض. «وحده «ا.ل»، الذي هو ملكك، يعلم انك ما عدت ها هنا. « ا.ل»، الذي هو ملكك، يفكر فيك على الدوام».

– ماذا عسا هذين الحرفين ا.ل، يكونان يعنيان؟ توقيع؟ إشارات؟

– هل تجيدين تفسير الإشارات، أيتها العزيزة هند؟

– لا يا عزيزي موسى!

– بالله عليك قولي لي. أنت التي تهتمين بشؤون الذهن، هل

بإمكانك أن تفككي نسيج الحالة الحلمية لهذا الرجل الذي يعذب نفسه؟

- هذا، لو كان بإمكاني أن ألج الأرواح.

- لكنك قمت بدراسات نفسية معمقة.

- أجل. قد يكون هذا الرجل قد ارتكب عملاً إجرامياً أو لا أخلاقياً ندم عليه. وهو يشعر بآلام عميقة أن لا يستطيع إصلاح ما أفسده. لقد استهدف فعله ضحية عزيزة: فقلب الأرض يرمز إلى الموت، وصفة الإمتلاك «ملكك» تعزز فرضية الربط بين الضحية الحقيقية أو الإفتراضية والمعتدي عليها. للصفة هنا معنىً ذاتي، وتسِم ما ينتمي إليه، ما يملكه.

نعلم، الآن، أن ارتكاب جريمة يقتضي دائماً وجود شخص أو شيء أو مجتمع، هم، بالضرورة شركاء للمجرم.

- هل تلمحين لجريمة ارتكبها المغني؟

- كل شيء يسمح بالتفكير في أنَ الأمر يتعلق هنا بعواقبِ حالةِ إجرام بعد حزن. ألا يكون طائراً مرسولاً؟

صمتت الفتاة، ولم يرد رفيقها أن يلح عليها.

ينتمي موسى إلى أولئك المثقفين الضالين الذين لا يستقرون على حال. بعد حصوله على إجازة في التاريخ، سعى، سدىً، إلى الإنضمام إلى الشرطة. وانتهى بان أقنع نفسه بأن بإمكاننا، على أي حال، أن نكون في خدمة الشرطة دون أن

نكون منتمين إليها. قدم خدماته لضابط فرقة مكافحة المخدرات التابع للمصلحة الإقليمية للشرطة القضائية بالقنيطرة، فقدمه هذا الضابط إلى زملائه، قبل أن يُنقلَّ انتقالاً تأديبياً إلى الحسيمة.

كان موسى يعيش من مدخوله في التهريب. وعندما كان يُسأل عن سبب امتهانه لهذا العمل، كان يجيب دون تلكؤ: «هو نشاط ذو مردود، ولا يزعج أحداً». ثم يضيف باسماً: «إلا الدولة».

توقفت السيارة دون ضجيج أمام الفيلا الصغيرة المنبطحة مثل كلبة صيد. ترجل الرجلان. وفي اللحظة التي كان فيها موسى يدير المفتاح، نودي باسمه.

كان المنادي هو المفتش الرثمي.

- ماذا دهاك يا موسى! لقد بحثنا عنك في كل مكان.

- أنت بمفردك أم مع الميري؟

- هو في السيارة تحت الأشجار.

- يمكنك ان تناديه. هناك ما يكفي من الطعام والشراب.

- شكراً، نحن هنا لأمر آخر.

- هل لكم أمر بإلقاء القبض علي؟

- لا. الأمر أكثر جدية.

– بماذا يتعلق الأمر؟

أقبل الميري متباطئاً، مهموماً على ما يبدو.

أصر موسى:

– لكن أدخلا. سنكون أحسن بالداخل.

ما كاد الرثمي يجلس على كنبة ثوبها اخضر، حتى أعلن عن سبب الزيارة.

أصدر موسى صرخة، وقال دون مقدمات:

– من له المصلحة في قتل الأزعر؟ من تجرأ على قتل هذا الرمز؟

– كل المشكل في معرفة ذلك.

لاحظ الرثمي قبل ان يتابع:

– الرموز لا تُقتل. فالكتاب، في العمق، حتى وهم ميتون، حاضرون دائماً. لا يمكن لقضية الأزعر ان تنتهي بمحضر رسمي ناتج عن تحريات عقيمة، كما درجنا على ذلك في الأبحاث التي نجريها حول القضايا الإجرامية الإعتيادية. إما أن نلقي القبض على الفاعل أو الفاعلين، وإما أن تتكفل الفرقة الوطنية للشرطة القضائية بهذه المهمة.

صمت الرثمي فجأة. تذكر كلام روني لوشا، الخبير البلجيكي الذي كان الضابط البكري يحب أن يستشهد به

للرجال الخاضعين لسلطته: «كل إخبار يمكن ان يكون ذا نفع في إجلاء الحقيقة، يجب ان يقبل من طرف الشرطة وأن يكون موضوع بحث فوري. إن هذا الأمر ليضع المشكل الصعب والمحفوف بالمخاطر - لكن لا غنى عنه - للمخبرين في إطاره الحقيقي، رغم المعنى القدحي الذي يلصق بهم، ورغم النفور والإشمئزاز اللذين يثيرونهما.

إن المخبرين شأنهم شأن بعض الأسمدة المخصبة ذات الرائحة الكريهة؛ إذ يكونون، أحياناً، مثلها، ضروريين في بعض الأبحاث الإجرامية».

فهم الميري أن زميله مسْتَغرَق بفكرة ويعاند ان لا يغضب.

لم يكن موسى ينتمي، بالتأكيد، لفئة المخبرين التي يشير إليها عالم الإجرام البلجيكي المشهور.

«في مستوىً أدنى، نجد منهم أصحاب الخمارات والنوادل والباعة المتجولين ومجرمين قدامى تابوا، لكنهم احتفظوا ببعض العلاقات مع دائرة المجرمين.

وفي مستوىً اعلى، نجد مومسات وقوادين وعائدين إلى عالم الجريمة ومنحرفين ثائرين وأبناء عاقين وأنذالاً.

وفي مستوى ظرفي، ثمة أشخاص يسعون إلى الحصول على جوائز موعودة، وتحقيق مكاسب أخرى شخصية، وإشباع رغبةِ حقد أو انتقام». يختم روني لوشا.

لم يكن موسى، بالتاكيد، ملاكاً. كان يبحث، بالطبع، عن تحقيق مكسب، لكنه مكسب متواضع. فهو لم تكن له البتة نزوع غير عادية للربح.

حيت هند، بقميص قصير، الضيفين «اللذين كانت تعرفهما» ووضعت صينية مزينة بأكواب عصائر قدمتها للمفتشين ولعشيقها، وهي تعتذر عن عدم وجود مشروبات أخرى.

خاطبها الرثمي بابتسامة شبه صفراء:

– الاستقبال الحار يكفي. اجلسي يا آنسة. أنت فتاة ذكية ومثقفة.

– العفو.

ثم تابعت بخجل:

– إذا كنت قد استطعت التخلص من البؤس فبفضل الشرطة.

– أنتما تعلمان ان الخدمات التي تقدمانها إلينا جليلة. وسيأتي يوم تجازيان فيه خير الجزاء. المهم. نحن هنا لنحدثكما عن مقتل الأزعر ولنطلب منكما مساعدتنا.

ثبتت هند بصرها على موسى كما لو لتقول له: «إذا كنت تعرف القاتل فلا تتردد في الإبلاغ عنه»

تابع الرثمي:

– مبدئياً، رجل الأنوار هذا لا يمكن ان يكون له أعداء. لكن من يدري؟ فالحياة تحتفظ لنا أحياناً بمفاجآت.

قالت الفتاة منكسة بصرها:

– أنا أعرف الأزعر. لقد قرأت لتوي روايته الأخيرة «اغتيال الفضيلة» التي يحكي فيها قصة طفل طبيعي ولد في مجتمع فقد الإيمان. وعندما شب، آلى على نفسه أن يشيد مراكز استقبال لفائدة الأطفال الطبيعيين. لكن كيف الحصول على وسائل التمويل؟ وبما انه كان عاشقاً للمسايفة، فقد عمل على إغراء أباطرة مخدرات. أفلح في سعيه. وبفضل تواطؤ موظف بنكي يعمل لنفس القضية، شرعت ملايين الدراهم القادمة من التجارة المحذورة تُحول إلى حساب بنكي سري. بدأت مراكز الإستقبال تنبت مثل فطر، فأصبح الأطفال الطبيعيون يحظون بأكل اجود وبإقامة أفخم من إقامات الأطفال الشرعيين.

وذات يوم تنبه رجال المافيا إلى الخدعة، فلم يترددوا في غمر رجل الخير هذا بالرصاص، في مساء لا اسم له. لكن البحث لم يفض إلى شيء.

كان الرثمي والميري ينصتان بانتباه إلى الملخص الذي قدمته هند، ويتبادلان النظرات، فانتصبا واقفين وحيياهما وانصرفا.

فهم موسى وعشيقته بان الأزعر كان يتماثل مع فاعل الخير المغتال، وانه أعلن، ربما، دون ان يقصد، وفاته.

ومن غير شك، فإن الشرطيين قد قاما، وهما ينصرفان، بنفس التأويل.

«لكن، وفي كل الأحوال، فإن الأزعر لم يكن الرجل الذي يسمح لنفسه بالوقوع في حبال التجارة المحرمة. ثم إنه لم يبدِ أدنى علامة على الثراء. لقد كان رجلاً متواضعاً، بل متقشفاً» خاطبت الفتاة نفسها.

وفي الآن نفسه، كان المفتشان يحاولان الربط بين «اغتيال الفضيلة» ومقتل الكاتب. مبدئياً، ليست ثمة علاقة، فقد كان الكاتب فوق كل الشبهات. بل كان يعرب حتى عن احتقار تجاه هؤلاء الأشرار الذين يرميهم أحياناً بالأوباش البلداء.

– لكن الثقة لا تقصي المراقبة، قال الرثمي.

– بالطبع. هل لك اقتراح معين؟ عقب الميري.

– تثبُّت منهجي من كل الوثائق، بما في ذلك المراسلات الشخصية للضحية.

– إذا لم يخني فهمي، فإن الأزعر كانت له بعض العلاقات مع محيطه. لكن لا شيء لدينا يؤكد هذا الشك.

– هل تعتقد ان الجريمة مجانية؟

– إلى مَ تريد ان تخلص؟

– بدءاً، لنزح جانباً الإفتراض الخاص ب «بعض العلاقات».

– هل تفكر في تفتيش؟

– أجل. وعلينا أن نقنع به الضابط.

– كم الساعة الآن؟

– الواحدة صباحاً.

– أتعتقد أن الضابط ما يزال في مكتبه؟

– ما دام لم يبن له أثر، فهو في مكتبه أو يبحث في مكان آخر. أنت أعلم به مني.

– نعم، لكننا لن نخسر شيئاً إذا طلبنا موقعه من قاعة الواصلات.

تناول الرثمي قرص الراديو موطورولا وبعث بالبرقية.

– موقع الضابط البكري؟

لم تتأخر الإجابة:

– في مكتبه.

– استقبلت الرسالة. في غضون خمس دقائق ستكون السيارة 15 أمام مركز القيادة الإقليمي.

– مفهوم. صباح الخير.

– صباح الخير.

كان الضابط في مكتبه المنار يفكر في هذه الجريمة

الغامضة. فعملية القتل هذه هي - أكثر من كونها ضرورة قضائية - مُهينة. وفي لحظة، أصبح من جراء اعتمال داخلي مهموماً وحائراً. وصل به الأمر حد ان ندم على التحاقه بالشرطة؛ هذه الإدارة القاسية التي تفت وتعصر قلب مشايعي الأمن؛ هؤلاء الذين يقفون جنباً إلى جنب - كما يقول خوار رولفو، الكاتب المكسيكي الذي ألف يانو في خضم اللهب «مع المخبولين والآباء زناة المحارم والفتيات المنذورات للجوع أو للدعارة والمجرمين من كل نوع، سذجاً أو خبثاء، الموكولين إلى كف قدر له كل صفات الشيطان. عالم يعيش باستمرار على حافة الموت، على حافة الإبادة، عالم يبدو وكأنه يستنزف آخر قواه في جعل الحياة لا تحتمل اكثر فأكثر، والحزن أكثر كثافة، والجسد أشد إثخاناً والمعاناة أكثر قسوة، والضحكة أكثر مرارة!»

والحق ان هذا الشعور بعدم الوقوعِ على الإختيار الصحيح كان يشعره بالخجل كلما واجه بحثاً متمنعاً عن الحل. لكن، يجب القول أيضاً أن الحظ كان بجانبه دائماً، أو يكاد. في الحالة الراهنة، فإن الأمر لا يقف عند كون سلاح ناري كان أداة ارتكاب الجريمة، بل يتعدى ذلك إلى كون الجريمة قد طالت شخص كاتب. شرعت خلسة موجةُ غضب تَقرضه، فكاد ان ينفجر إذ ولج المفتشان مكتبه.

أراحه هذا الوصول غير المنتظر. دعا بآلية مساعديه للجلوس.

– ما الجديد؟ سأل.

– اتصلنا بموسى وهند.

– ثم؟

– حدثتنا هند عن الرواية الأخيرة للأزعر.

قاطع الضابط الرثمي:

– ألف كتاباً جديداً؟

– أجل.

– ما موضوع الكتاب؟ وما عنوانه؟

– عنوان الكتاب، حسب هند، هو «اغتيال الفضيلة». ثم سرد المفتش الميري حرفياً تقريباً الملخص الذي قدمته هند، وخلص إلى أن الأزعر كان يستشعر موته العنيف. كثير من المصادفات في حاجة إلى تثبت، وتفتيش جديد قد يكون، ربما، ضرورياً.

– بالتأكيد، أقر الضابط.

أدير محرك السيينا السوداء، الرثمي في القيادة والضابط إلى جانبه، وفي الخلف جلس الميري. نظر البكري في ساعته: كانت تشير إلى تمام الثانية.

أدت الدورية التي كانت تحرس فيلا الأزعر التحية. فتح الرثمي الباب وضغط على مفاتيح الكهرباء الواحد بعد الاخر، فانبعثت الأنوار.

اقتعد الضابط كرسياً وأمر المفتشين بالقيام بعملهما.

في الوقت الذي انهمك الميري والرثمي في فحص أكوام الورق الموضوع على رفوف المكتبة، كان البكري يفكر في حياته المبتذلة: صعود ونزول، مسيرة غير متساوية، مسار معوج! كان، من جديد، يعيش على حافة الوهم. في الثانوية كان مأخوذاً بدرس الفلسفة. وقد أثر فيه جوزيف دي ميستر إلى الأبد. كان يلذ له أن يعيد جمله عندما يكون وحيداً أو بقاعة المطالعة: «لاحظوا، أكثر من ذلك، أن قانون الحرب الذي هو مرعب في ذاته، لا يشكل، مع ذلك، سوى فصل من القانون العام الذي يحط بكلكله على الكون.

يسود – في المجال الرحب للطبيعة الحية – عنف صارخ، نوع من السعار الذي هو سلاح لكل الكائنات على تخوم الحياة نفسها. وحتى في المملكة النباتية، نشرع في استشعار هذا القانون: من أكبر شجرة كتالبا وإلى أصغر نبتة، كم من نبات يفنى، وكم منه يقتل!»

تفرس للحظة جندييه المنهمكين في العمل وخاطب نفسه: «كم بوسع هذين اللذين يتحملان الجانب الشاق من الخدمة العامة أن يكونا نشيطين. يا أسفاً على هذا البلد العزيز الذي لا ينظر إلى الشرطة إلا من زاوية تحرف الرؤية. ما دام الإنسان ذئباً متربصاً بأخيه الإنسان، فإن هذا العالم لن يكف عن إبادة نفسه، بالتدريج كل يوم، أكثر فأكثر كل يوم، حتى إن الضبع

الذي يقتات من الجثث لن يشعر يوماً بجوع. هذا العالم الذي يصم أذنيه عن صرخات الضيق، غير المبالي بالأحزان، والذي لا أحشاء له ولا امعاء، ما عادت له ذاكرة. وهل امتلكها يوماً؟

هل هو مكتوب على الشرطة القضائية ان لا تؤدي إلا مهمة واحدة: التنقيب في السفح الكريه، المقرف، المرعب والذميم للمجتمع؟»

تفرس البكري الميري والرثمي كما لو أنه يراهما لأول مرة. لم ينتبه المفتشان طبعاً لذلك. كانا منهمكين في فحص عرمة المراسلات وفي ترتيبها حسب موضوعها في أفق استثمارها. لقد تعلما من رئيسهما الصرامة والدقة: «حتى في الوضعيات الأكثر صعوبة، تنتهي الحقيقة دائماً، بفضل الإصرار والمثابرة، إلى البروز. يمكن لأدنى عنصر ان يختزن معلومات، على شاكلة البصلة. علينا ان نجيد التقشير».

قال الميري، برنة ممزقة، وهو يقلب ويعيد إشعاراً بتحويل بنكي باسم الأزعر:

– لكن هذا مبلغ هام! أربعة ملايين درهم!

انتفض الضابط ومال على الإشعار يقرأه بسرعة، فنظر إلى المفتشين كما ليؤكد بريق الأمل. نسي بسرعة التعب الذي كان مستولياً عليه، ونسي القلق الذي كان يعذبه.

عكست عيون المفتشين ارتياحاً بالفوز لم يلمحه رئيسهما في عينيهما منذ بداية البحث. ثم أنهى مع بسمة مخنوقة:

«قيمة وثيقة مكتوبة رسمية تفوق قيمة ألف شهادة. فبفضل دليل اخرس يتقلص هامش الخطأ لصالح الصواب، على طريقة جان جينو البرتي، تقريباً، الذي لم يكن، حسب تعبيره نفسه يبحث عن أية حقيقة، وإنما «أريد أن أحكي حكايات، مثل راو أُجلس إلى جذع شجرة، في يده صحيفة خشبية.... ما اكتبه ليس ما أراه وإنما ما أراه ثانية... فربما لست سوى شاهد مزور!»».

فحص البكري الإشعار واعاد، عيناه جاحظتان بفعل المفاجأة. ثم خبأ الورقة وذهب ليتهالك على الكرسي دون ان ينبس. ظل للحظة ساكناً. وفجأة شعر بقلبه ينقبض. وانتصب واقفاً وجعل يذرع الممر وهو يدعو لهذا العالم القذر: «ملعون هو اليوم الذي امتهنت فيه هذه المهنة». دمدم.

مبدئياً، الكائن البشري لا يستنزف. وا أسفاه على ان نجد أنفسنا في هذه المرحلة! هل كان الأزعر عضواً في...؟

كان موته موقعاً تقريباً. صحيح أن الضابط لم يسلك البتة المسلك المستهجن في تبسيط الأمور. والبحث، أي بحث بوليسي ليس تمريناً في الهندسة. إن تحويل مبلغ هام يضع حداً، مبدئياً، لفرضية قتل بدافع سياسي. ثمة إذن أياد خفية تكمن خلف عملية القتل. وتوقيع جريمة، هو على أي حال، توجيه تهديد لأشخاص آخرين. من كان المستهدف بالتوقيع؟

إن إيجاد إجابة عن السؤال سيؤدي بالبحث إلى وجهات مجهولة. لو لم يكن الجسد جسد كاتب لكان تم التوصل، مع

شكوك مثارة، إلى فرضيات، ولتم الخلوص إلى استنتاجات مؤقتة أو نهائية.

لكن لماذا لم يخف الأزعر إشعار التحويل؟ هل يتعلق الأمر برسالة ما؟ إذا كان الجواب بالإيجاب فمعنى ذلك أن الكاتب كان يعرف انه سيموت. وإن كان بالنفي، فهو، بالفعل، مغفل. لن تكون للرسالة البعدية غاية.

غالباً ما ينبعث النور حيث لا يكون منتظراً. وشوش صوت داخلي في أذن الضابط: ستنحل هذه الإفتراضات أو تتخثر بفعل توضيحات التقصي في المصرف. ارتج جسده. شعر باضطراب خفيف. نظر طويلاً إلى أكوام الكتب الموضوعة حتى على الأرض وأعرب عن رغبة لا تقاوم في أن يسألها عن الأشخاص الذين حملوا الجثمان. اختلجت عيناه، في لحظة، موشية بالمجهود الذي كان يبذله. لقد كان اليوم وجزء من الليل متعباً جداً بالنسبة إليه وبالنسبة لمفتشي الفرقة الرابعة.

ليتخلص البكري من تهويماته، شرع يتأمل مساعديه بامتنان كبير. اجتاحته مشاعر جديدة، ولم يعد جسده مكبلاً بالنوم. أيقظ انتعاش مفاجئ حواسه، غير ان حدوسات سلبية استولت من جديد على فكره. سيطرت حمى عنيفة على قلبه وأخذت بتلابيبه. أفكار، أفكار كثيرة تصرخ في روعه، وشرع يكرر: «لا، لا يمكن للأزعر أن يكون عضواً في العصابة، وأن يلطخ ضميراً حياً، أنقى من الماء المنبعث من الصخور. ما كان

ليتخلى عن غرائزه الإنسانية ومرجعياته الثقافية. ما كان ليستأصل جذوره وليقلب قناعاته. لا. ثم، ألا يكون الإشعار المصرفي مزوراً؟»

تكاثرت شكوك الضابط وتكثفت إلى درجة أنها التهمت ثمالة النصر التي استشعرها من لحظات.

أمر البكري المفتشين بإيقاف البحث، وعاد إلى منزله مضطرباً في غاية الإثارة. لكن استعادته لما حصل لم تزد إلى استعاراً.

3

كانت الشمس تميل إلى المغيب، عندما ولج موسى السقيفة الكبرى، مكان انتعاش الأرواح المتيبسة وانطلاق الرغبات المكبوتة. لم يكن الحان قد امتلأ بعد، ولاحظ المرتادون القلائل، من غير شك، حضوره المبكر.

كانت الخطة التي وضعها مع هند بسيطة: مراقبة حركات الرجل ذي آلة العود، وتعقبه بعد إقفال السقيفة الكبرى إلى أن يصل إلى منزله، ثم السؤال عن الرجل وعن المقربين منه وعن علاقاته، ومحاولة اختراق حياته. كما أن ربط بعض العلاقات لن يكون أمراً بلا فائدة. كان ضابط المخدرات – تذكر – يقول باستمرار: «يجب نيل ثقة المجرمين، على شاكلة الأمير الصغير الذي حظي بثقة الثعلب، في كتاب سانت اكزوبيري» فيجيبه موسى بنبرة لا تخلو من زهو: «أجل، أيها الرئيس». وكان الكوميسير، رئيس المصلحة، قد قال له: «يجب ان تعمل على أن تكون قادراً على حفر كوة في ضمير هذه الكائنات النابحة التي لا ترتاح إلا في فقعات التفاهات». إن المتعاون مع الشرطة، وهو نصف أسقف، نصف مشعوذ، لَهو آلة لاستكشاف كل أنحاء الذات، دون ان يسقط في حبال العجرفة. لن يفلح أبداً

شرطي بمفرده في حفر النفق السميك لجريمة الدم ولدوافعها، دون مساعدة أشخاص آخرين. لا غنى عن المخبر، وعليه ان ينتبه إلى أن لكل فعل ولكل حركة قيمة رمزية.

استقبل موسى الرسالة وفهمها. ومنذئذ حصن نفسه ضد كل طيف خيانة.

طهر روحه من كل أثر للمكر. عرف بالضبط ما يريد. لحظة لا تنسى: سحبه ضابط فرقة محاربة المخدرات وتملاه طويلاً. كانت لغة النظرات أفصح من جعجعة الكلمات. عاد كل شيء إلى ذاكرته في هذه اللحظة، بما في ذلك صورة هذا الضابط الكورنيلي الذي نقل منذئذ إلى جهة مظلمة مهملة. لحسن الحظ، هناك النسيان الذي يقول طونينو بناكيستا بأنه «ضرورة حيوية مثل الماء والطعام. إن محو الذكريات التي تقلقنا لهو الضمانة الحقيقية لصحتنا العقلية».

لقد جرف تيار النسيان هذا الضابط كما جرف وسيجرف آخرين. في دفتر الوجود، وحدها الأفكار تبقى مشرقة. أما ما عدا ذلك، فليس سوى ركام من الجثث الكئيبة مدفونة في مزبلة التاريخ.

ربما كان المغني ينشد من أجل مصارعة تدهور الذاكرة وإلغاء ذكرى وديعة تفجر فكرة رائقة. هل كان يقاوم تيار النسيان؟

كان الليل قد أرخى لتوه سدوله على المدينة. حضر الرجل ذو آلة العود إلى السقيفة الكبرى. أرسل لمن حياه بسمة مرفوقة

بحركة خفيفة من رأسه. هذا طقسه. اتكأ موسى على حافة الكونتوار وركز على حركات المغني الذي قبل ان يقبض وجهه احتسى بعض الكؤوس.

راقبه موسى محاولاً الحفر على أناه الأسير: الجزء الأكثر ثراءً والأكثر إثارة للحيرة في الكائن البشري، يبقى تحت القشرة، في طبقة مغمورة لا يستطيع أن يجعله يطفو إلا سيل من التساقطات.

أصاخ الخادم السمع وأحصى عدد انقباضات شفتيه وأعضائه.

«نشيد إلى التي ترقد في قلب الأرض»، أنشد الرجل ذو العود.

شرعت الصيغ والتعابير تأتي وكأنها محمولة على قدمي يمامة. كانت الكلمات والجمل، الحزينة والشاحبة، تأخذ إهاب الكاشف عن احداث ماضية. كانت تحرك بوضوح بركاناً داخلياً يعمل على أن لا ينفجر. كانت لنشيد الحب الضائع علاقة بالظرفي. لم يستطع نور الجُمل طرد ليل ماض ما زال يلف روح المغني. كان منهوكاً بشكل واضح، وكان يترك فتحةَ مأساةٍ عاشها، تظهر للعيان. ما الذي كانته هذه المأساة؟هذا هو صلب السؤال. كانت رنة جمله تُغم قلب الخادم.

«ليست البتة قراءة الكلمات العسيرة وتأويل صيغ غامضة عملاً بلا جدوى. فلهما سلطة مؤكدة على تسكين الإعتمالات المتحفزة في النفس. ثمة بالتاكيد علاقة بين اللغة وهذه الاعتمالات الضاجة.

لكن لماذا يصر المغني على ذكر العنوان؟ أما كان بإمكانه ان يتلو سلسلة الكلمات دون ذكر للعنوان؟ هل هذا ما يجعله في حالة ارتعاد فورية؟ ألا يكون للعنوان نفس تأثير جرعات الكحول؟

هذا الكائن، شديد الغرابة، لم يكن يشعر بالارتياح إلا في معزله الخاص المعبور بلعبة غريبة: الحب والخيبة. كان يحيا على هامش الكون.

يجب إذن الحفر وإعادة الحفر في هذا الحقل الصّواني الذي يشكله هذا الكائن، هذا المغني، الذي يشكله كائن بشري.

هل كان يجتر كابوساً؟ هل هو مربي خفافيش؟ هل يعتقد ان العالم ابتدأ وانتهى مع محبوبته؟ هل يحاور روحاً تحيا في عالم موازٍ ترسل إليه فتات ذكريات؟ هل يتعلق الأمر بمرافعة بعدية، ملغزة، غريبة؟ هل يدمدم بتضرعات؟

في رثاء هذا البويهيمي المنتمي لزمن آخر، شيء من كل ذلك».

لم يكن بإمكان الخادم، الحذر بطبعه، أن يخلص إلى استنتاجات متسرعة، كأن يقول مثلاً «هذا الصقر الذي يسكب عبرات حارة بإيقاع متقطع، هو بالتأكيد مرتكب جريمة. هل هي جريمة مادية ام معنوية؟

للإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب او بالنفي، لا مناص من تدقيقات ومن أبحاث، بكلمة، لا بد من عمل دؤوب جبار».

كان موسى يستشعر نوعاً من النشوة لكونه قادراً على مساعدة الشرطيين على فك رموز هذه النازلة المتعبة.

من المفروض ان تكون هند، التي كانت تلمح المشهد بطرف بصرها، قد قامت بنفس الاستدلال، وان تكون قد أعربت عن نفس الرغبة.

كرر المغني آلياً نفس الحركات. بعد تصويتاته اقتعد مجْثَمه المعتاد، مواصلاً مخاطبته للأطياف إلى أن يشفي غليله، في يده كأسه، فتفوق ومرر لسانه على شفتيه.

استعد للانصراف، وقد زينت السماء بمصابيح. أدى الفاتورة وشق طريقه بصعوبة، بساقين مترنحتين، وسط جلبة السكارى الذين أدركوا، من فرط ما شربوا، لحظة النشوة والانخطاف. «ألا يقال بأن الخمر قد صنعت من أجل الشرب والتبول؟ في لحظات السعادة كما في لحظات الشقاء! إن السقيفة الكبرى لتجسد ساكنة بأكملها، بحالاتها المختلفة. بعبارة أخرى، هل يمكننا أن نعثر في السقيفة الكبرى على فضاء صالح لتناوب السعادة والشقاء؟ ليس المرور من حالة إلى أخرى سوى مسألة ثوان. بين القهقهة العالية والشكوى المتشنجة لا يوجد فاصل. هل هذا هو السبب الذي جعل المغني يأتي ليفرغ هنا، وليس في مكان آخر، تأوهاته؟ الواقع ان السقيفة الكبرى غريبة، لا مثيل لها، ورائعة! هي نوع من المزاوجة. يتقاطع فيها الحقراء والنبلاء، الأوباش وكريمو الأصول».

وجد المغني نفسه، على باب الحان، وجهاً لوجه مع الخادم.

مد موسى كفه للمغني وقدم نفسه على أنه معجب مأخوذ بعمق وجمال الأغاني. ودون ان يترك للمغني فرصة للإجابة، تناول آلة العود واقترح، بلباقة كبيرة، أن يوصل المغني إلى حيث يشاء.

نظر المغني، مُقلَقاً، وشبه متوجس من هذا العرض، نظرة حذرة إلى نصيرِ فنونِ منتصف الليل، إلى هذا الكريم المفرط في كرمه. «هل يكون محظوظاً هذه الليلة؟». تذكر كم مرة كان محط عناية، محط إعراب عن انشغال وتأثر. مرتان أو ثلاث مرات.

«تشكل الأقنعة المغشوشة، في زمننا الجاري – خاطب نفسه – جزءاً من المشهد. يتم التساؤل عما إذا كان ما يزال هناك مكان للفضيلة في عالم يخور حقداً ويلفظ بؤساً وحيث ما عاد الناس يفعلون غير ان يخاتلوا. ألا يكون هذا الشاب عديم الأخلاق، ألا يكون شاذا جنسياً، مهرباً؟». ألقى بنظرة على مرافقه فوجد انه يملك هامة ملاك طيب.

– هيا! دمدم المغني وهو يتهالك على المقعد بجانب موسى.

– إلى أين؟ سأل الخادم وهو يدير المحرك.

– ساحة 11 يناير، قرب المحطة، عمارة اللوتس.

ثم صحح المغني فوراً، منتبهاً إلى انه رغم المظاهر، يمكن لكل إنسان أن يكون قنبلة قاتلة.

– على أي حال، عمارة بلا اسم. الله يلعن الشيطان. وأنت؟ أين تقطن؟

– بالمهدية.

– مسافة طويلة.

– أجل، مسافة طويلة.

– ماذا تشتغل؟

– تاجر وعاشق فنون.

– هذا رائع. ليس بديهي ان يتم الجمع بين أشياء الذهن والمادة. على أي حال لا يكون ذلك بديهياً دائماً.

– ربما.

يتذكر موسى دائماً كلمات ضابط فرقة مكافحة المخدرات، ويبدو قادراً على التواصل، ميالاً إلى الثقة، بل حتى سريع تصديق ما يقال، خصوصاً أمام رجل طافح ذكاء ومكراً.

لم يستطع موسى، مع ذلك، إيجاد تفسير لسلوك المغني. «لماذا سمى العمارة وتراجع على الفور؟ هل يتعلق الأمر بتراجع بريء يعزى إلى التعب، أم ان لسانه خانه، ام لعل عمارة اللوتس تكون موجودة، وانه سماها عن حق، ولسبب غير

معروف عدل عن ذلك؟» وبالفعل، فإن السبب «غير المعروف» ليس بالحاجز المناسب. إنه مَهْرَبٌ يسمح لكل شخص، في وظيفة مزعجة أو مقلقة، بالتحرر أو بالتخلص بأقل مجهود فكري. ثم إن تغيير الرأي يؤكد، بالمقابل، الطابع السفسطي للحجة المقدمة. كان المغني يعرف كيف يقنع أفكاره بمهارة ويموه عمق تفكيره. هل سيفلح موسى فيما فشل فيه، بشكل يدعو للرثاء، علماء النفس؟

كل شيء يدل على ان للمغني نقطاً سوداء في ماضيه، وهو الماضي الذي يغنيه بنبرة مترعة غماً وشجناً، ماض مشكل من كآبة، ومن حب حدَّ الجنون، حب حد الموت. نظرة هذا الرجل مركزة على الماضي، في عمق المستحيل. إن ذكرياته لا تفصح عن نفسها إلا سراً.

كانت الشكوك تجتاح الخادم وهو ينزل بساحة 11 يناير. لم يسعَ إلى التأكد من أقوال المغني، مخافة أن يوقظ حذره. «ليبارك الله سانت اكزبيري»، خاطب نفسه، وهو يُرسي سيارة الأونو جانباً، على بعد أمتار من السقيفة الكبرى.

كانت هند تحترق من الإنتظار. عندما شاهدت موسى أشارت عليه بالإقتراب وخاطبته بصوت خفيظ يكاد يكون غير واضح، عما إذا كان ثمة جديد. أجاب موسى بجفاف «لا»، وانسحب دون أن يراه احد إلى مكان خفي يحتله صف من المومسات نصف ثملات، نصف صاحيات. «يتحول هذا العالم

الكثيف، مع اقتراب الإغلاق، بالنسبة لهؤلاء الشابات إلى مصنع للعذابات النفسية: أين قضاء الليل أو ما تبقى منه؟ مع من؟ والالتزامات العائلية؟ والمسكن؟ والماء والكهرباء؟ والحلاقة والحمام؟ والملابس؟ والقهوة المضغوطة لدحر السكر؟ و...

هؤلاء النسوة المتعبات من التمثيل، الفاشلات في تحقيق آمالهن، لم يكن بإمكانهن ان يعربن عن ما يشعرن به من قلق إلا بالتيه وبتعذيب الذات وبالهروب. الحياة بالنسبة إليهن رقصة طانغو مستمرة. يصنفهن الناس بلا رحمة في عداد بائعات الهوى. وهن يبعنه حدَّ الاختناق، حدَّ أنهن ما عدن يشبعن زبناءهن. وإذا كانت الأجور المحولة لم تستطع يوماً أن تغني امرأة عمومية، فإن هذه المهنة لن تبور أبداً. وباستدلال معاكس، يمكن لذهنية بيانية أن تعقب بأنه إذا كانت هذه المهنة تذر ثروات، أفلا يكون ذلك مدعاة للخوف من انتشارها وتكوينها لصناعة دون ادنى استثمار؟ أي، بمعنى ما، نعمة!»

كان موسى يفكر وهو يحاول ان يجد تفسيراً أو على الأقل صلة بين كل هذه العناصر. مقتل الأزعر، أغنية، اختفاء امرأة أجنبية: أية علاقة؟ أيكون الأمر متعلقاً فقط بمغامرات وهمية ليست بينها علاقة، أم أنها حلقات في سلسلة واحدة؟

أصبح، في لحظة، حائراً مذهولاً. حاول ما امكن ان يكون تفكيره منطقياً، وأن يؤلف من أجزاء وقطع موضوعاً موحداً. لكنه وجد نفسه، وهو في قمة الخيبة، يلَمِّع فرضيات متباينة

ومتناقضة. «أن تُغَني غير ان تقتل. هل يمكننا أن نغني الموت وأن نقتل الغناء؟».

كانت تفوح من هذا الرجل الأنيق والأصيل رائحة الغموض. فلولا نبرة الحزن هذه لكان أسعد الناس. وآلة العود؟ هل هي بمثابة آلة تميمة؟ أم أنها أداة شاهدة على بعض الأحداث السرية؟ آه لو كان بإمكان هذه الآلة ان تتكلم...»

هكذا كان موسى يفكر عندما اخطرته رفيقته بأن ساعة الإقفال قد أزفت. انتصب ومشى صامتاً نحو السيارة. تاه بصره في بعض السكارى الذين كانوا يعانون الأمرَّين، بعضهم في ركوب دراجته النارية، وبعضهم في العثور على ثقب قفل باب السيارة.

ما كان بإمكانه ان يقوم بكل شيء هذا المساء. إن اختراق حياة المغني يتطلب بالتاكيد بعض الوقت. لكنه كان يأمل، في أعماقه، أن يحصل على أكبر قدر ممكن من المعلومات، إلى درجة انه شعر بحزن يخترقه مثل طفل محروم من لعب عاشوراء.

كان، في السيارة يتجاوز شيئاً فشيئاً خيبته، ويبدد سحب الغيظ التي كانت تلف روحه. عطس في كفه كما ليكسر الصمت المقلق ويلفت إليه نظر رفيقته. قالت هند، التي كانت ترقبه خفية، بنبرة حادة:

– أنت سيء الحظ هذا المساء. يلحظ هذا جلياً على محياك.

أحس موسى بمويجات ارتعاش تتقافز في جسده. قال محمر الوجنتين من الحيرة:

– لم أستطع تحقيق غاياتي.

تفرسته هند قبل أن تقول:

– هل يمكنك ان تفسر قليلاً؟

كان قلبه يخفق بعنف. تظاهر بعدم سماع السؤال، لكن هند عاودت الكرة:

– هل يمكنك ان تقدم لي بعض الإيضاحات؟

تردد، ثم قال متمتماً:

– الظاهر انه نسيج معقد مراوغ.

– بمعنى؟

– المغني لا يقطن، بالتأكيد، في ساحة 11 يناير.

– وما اهمية ذلك؟

– أتقولين ما أهمية ذلك؟ يحتمل انه لم يَصْدُقني القول.

– ولماذا هذا الكذب في نظرك؟

– لا يريدنا ان نعرف عنوانه.

– لأي سبب؟

– هذا هو المشكل.

– علينا إخطار أصدقائنا. هم يتأكدون.

– يتأكدون من ماذا؟

– مما إذا كان المغني يقطن، أوِ لا، ساحة 11 يناير.

– ربما.

اختفت السيارة فجأة في ضباب كثيف.

«يعد الضباب في القنيطرة، في ذات الآن، علامة ورمزاً. هو يخفي التفاهة ويحول دون أن ترى عيون السماء ما يحدث على الأرض.

تحت دثار الضباب تلتهم الساكنة المختزلة في إحصائيات، ذاكرتُها جوفاء، العزلةَ، وتتنفس التفاهة. هل ستستطيع يوماً أن تنتصر على البيداء، هي التي تظل معلقة إلى الدسائس، مبتهجة في خفاء، منتقلة من ضمير الجمع إلى ضمير التثنية، تحيا على نفس الإيقاع دون تغيير.

يخنق الضبابُ السبابَ الذي يفضُل معلقاً على الشفاه، ويعمي شبكات العين الصَّارة، ويسمر ألسنة الإغتياب ويحجب النظرات التي تقذف سما، ويستر الأرواح الحانقة في لا–انتظام.

لكل امرئ ما نوى. يمسح الضباب الهفوات، ويقطع دابر الدناءات ويعفو عن الترهات. الضباب أمر إلهي، علامة متعددة الدلالات. وكما هو الشأن بالنسبة لكل العلامات، فإنه لا يكون في متناول الغافلين والمتبلدين.

الموت أيضاً هو جزء من العلامات التي تترعرع في هذا الكون. فهو يسمح لكل الكائنات بأن ترتفع حتى إلى رحاب الله».

كان موسى، في وحدته، يغرق في قراءة «النشيد الأول. الخلق». وكان يكرر قراءة هذه الجملة: «كل النصوص الفيدية ترتكز على معرفة الله، على معرفة الروح المتفردة، على النظام الكوني وعلى العلاقات التي توجد بين مختلف هذه الأشياء. عندما نعي هذه العلاقات، فإننا نشرع في التصرف على ضوئها، فيصبح إدراك هدف الوجود، تبعاً لذلك، والمتمثل في الرجوع إلى الله، أمراً ميسوراً. لكن، وللأسف، فإن الناس الذين لا يعرفون النصوص الفيدية إلا معرفة مشوهة، لا ينبهرون منها إلا بالمظهر الإحتفالي وبالطقوس التطهيرية، فيُعطل بذلك، تطورهم الروحي».

وموت الأزعر، هل هو علامة؟ دون شك. لكن كيف تأويله؟ هل يرمز إلى وفاة الأفكار. هل صُفي لأنه كان يشيع الفضيلة في كل الأنحاء دون اعتبار لأصل الناس ولهويتهم ؟

كانت مشاهد قتل الكاتب تُعرض أمام أنظار موسى. خالَ حتى أنه قد لمح أشباحاً تفر بعد ان اقترفت جُرمها. وفجأة شعر بشيء شبيه بصخر يصعد في بلعومه ويخنق نفسه. حاول خفية ان يقاوم وأن يُذهب من ذهنه اهتزازات خلفتها تأملات مكثفة. وكما لو لتساعده، ارتجت السيارة. أفاق من أحلام يقظته وحول المقود وقال:

– السيارة مثل المرأة، يكفي ان نهملها كي تغضب وتعاند.

لم تبد هند أي رد فعل تجاه كلام موسى. ولماذا تبديه؟ «ففي بلد تعتبر المرأة فيه شيئاً، تكون مقارنتها بسيارة أونو إطراءً». خاطبت نفسها.

كان الزمن ينساب ببطء، غير مدرك، مثل ماء سبو: الوادي الذي يُودِعِ طميَ مصبه ذكرياتٍ ومنسياتٍ مجترة. توشوش مياهه ليلاً وتتكلم نهاراً عما رأته، عما عاشته من فظاعات ومن مهازل، من حالات دجل ومن حالات جدية.

سبو علامة تعلن نفسها بلهجة حازمة. لقد انشق من قبلات الجبل وتأوهات السهل، وهو يلج المحيط، بحر الظلمات المسكون بالحوريات وبالأفعوانات والحيات المبهرة.

تقع القنيطرة، نقيضة المجتمع الشكلي، في موقع كان الأزعر، ربما، يثمنه.

شرع موسى من جديد يجتر أفكاراً حول هذه الجريمة الغامضة.

«وماذا لو كان للأزعر عدو ضمن طغمة الخُرق المعارضين للروحانية؟ لكن، ان يكون له عدو يفترض أن يكون قد حصل منه فعل غير لائق سابق. لا، لم يكن الأزعر ليرتكب خطأ بهذه الجسامة. فهو كان يعرف كيف يصفي الضمائر ويطهرها. فقد كانت له معرفة شبه كاملة بخواء الأذهان وامتلاء القلوب. لا، ما كان ليجرؤ كافر متبلد على رفع يده على هذا المبشر

بالتسامح المطلق. وقطاع الطرق، هل كان بإمكانهم أن يشكوا في أمر ما؟ هم الواقعون في تلافيف البؤس، الغارقون في الشقاء، الجديرون بالشفقة؟ هل يمكن لقطاع الطرق ان يكونوا قد فقدوا حتى ضمائرهم؟

أشياء كثيرة قيلت وكتبت عن الجريمة. لكن لا تفسير كونياً واحداً استطاع أن يستنزف هذا الطفاح من الفرضيات التي هي بنفس كثرة الحالات الملموسة. الطبيعة البشرية، عملياً، غير قابلة للإفتحاص، تماماً كما هو الشأن بالنسبة لهذا العالم الذي لا تَقْبَل منه التحليلَ إلا عناصر محدودة. لكن الكائن البشري، وانطلاقاً من ملامح متعددة، يشبه الأرجوحة ويعوض الخواء المعرفي بالخيال. الذهن المحروم من المعلومات يلتجئ إلى الحيل والدهاء.»

ومثل منطقي عنيد وصارم، سرعان ما انتشل الخادم نفسه من التعميم: «الجريمة جريمة. الجريمة محتومة ولا يمكن ان تنقاد لا إلى التفريعات ولا إلى التعميم. ويجب، في الوقت الراهن، معرفة الجاني او الجناة. أما تحليل الفعل، فيتم لاحقاً».

رغم ارتباط موسى وهند الوثيق بالمنطق، فإنهما قد سمحا لنفسيهما، مع ذلك، بأن يؤرجَحا بواسطة النفَس المتدفق للغنائية الرومانسية. فقد كانا مثل الأزعر متأكدين من أن «خلف الكائن يختبئ عالَم ينْزاح عن النظام الموحد، عالم أعجوبي، مضحك ومثير للإعجاب. وبما أن هذا العالم يوجد في

مأمن من الأنظار، فهو عظيم في عمقه. إن الذهاب لاصطياد الفضيلة في هذه الأغوار، حيث تصرخ المفاسد بكل قواها، لَيعد مغامرة حقيقية، لا يخرج منها سالمين إلا الشعراء والمجانين، أي أولئك أنفسهم الذين يثيرون الحنين الأصم والحيوات المسحوقة».

تنحنحت هند، التي كانت ترمق رفيقها بجانب عينيها، كما لتذكره بوجودها. فهم موسى فمط شفتيه ولم ينبس، إلى أن رست سيارة أونو أمام الفيلا الصغيرة بالمهدية. «المدينة التي تتسكع فيها الأحلام ليلاً، بكل حرية، وتتحلل الإلتماعات من أغلالها».

رن الهاتف، كما لو كان يتحين دخولهما. رفع موسى السماعة وأجاب متثائباً.

– كيف حالك أيها الرثمي العزيز؟

– ليس على ما يرام. هل لديك جديد؟

– لا. لكن رجلاً، هو مغني الحان، هل تعرفه؟

– أجل. ما شانه؟

– يتصرف بطريقة غريبة. قل لي، أين توجد الآن؟

– بالمصلحة الإقليمية للشرطة القضائية.

– هل يمكنك ان تقوم بتحقق صغير؟

- طبعاً.

- عما إذا كان المغني يسكن بساحة 11 يناير، عمارة اللوتس.

- أذهب حالاً. إلى اللقاء.

توجه الرثمي، وهو يهرش قطعة شوكولاطة، إلى ساحة 11 يناير. «كان يعلم أن هذا الفضاء يتحول ابتداءً من منتصف الليل إلى مكان لجمهرة منهوكة مستنزفة حتى فقدان العقل بالكحول الحارق، مالئة أحشاءها بالبقايا الملقية في القمامات.

أمامه توجد المحطة الكبرى، موقع المتسولين واللصوص. أطفال - راشدون قبل الأوان - ينعتون ب «الآلات»، بسبب سرعتهم في التحرك وسط المسافرين، وتَرْك اكبر عدد ممكن من الضحايا في لحظة من الزمن - هم دائماً في خدمة الأشخاص الراشدين.

يعتبر القطار المسمى «تيكساس» والذي يربط بين وجدة والدار البيضاء، القطار الأكثر حظوة. كان التكساس، وهو القطار الأقل سرعة، حياً حقيقياً متنقلاً على سكة. عمليات تجارية من كل نوع، تهريب لكل البضائع، معاملات مريبة ينجزها أشخاص يقال عنهم بأنهم يظلون اليوم بكامله على متن التكساس، ويقضون الليل في تلك الفنادق الشهيرة المسماة «لقاءات» حيث يواصلون مفاوضاتهم المذرة، بعيداً عن أعين جباة الضرائب.

ولإحقاق الحق، لا بد من القول بأنه لا توجد في التكساس أمور مشينة وحسب. فكم من خطبة على متنه عقدت، وكم من حفلات تمت، وكم من عمليات صلح أفلحت، وكم من علاقات أقيمت.

المسافة بعيدة، وعلى متن هذا القطار الذي لا يسرع أبداً، يجد المسافرون أنفسهم، أحياناً، في حاجة إلى النسيان. ولأجل ذلك، لا أحسن من الموسيقى. وبما أن المجتمع المغربي متعدد الأشكال، ويقول البعض بأنه مكون انقسامي، قائدي أو مركب، فإنه من الضروري العمل على إرضاء كل الأذواق: تختلط الأغاني الشعبية بالأغاني العربية والأغاني الإنجليزية والآلات المختلفة، مما يعطي صورة شاملة عن سوق. والتكساس سوق في حقيقته، ويومي.

و«الآلات»، كلما قلت عمليات سلب المسافرين، كانت أكثر عرضة للعنف. القانون الجنائي لا يطبق في هذا المكان الموبوء.

عندما تخف حركات القطارات أو تتوقف، يجتمع «الآلات» مع رؤسائهم كي يقيِّموا أعمالهم ويوزعوا الحصص و... ضربات السياط.

تخصص هذه المقادير الهزيلة لشراء مواد غذائية توجه إلى الآباء القابعين بلا خبز ولا أمل وسط دور الصفيح العفنة الموبوءة.

ستتسلم الآلات المشعل من المسنين، وستواصل التقليد.

في هذا الوقت كانت «الآلات» قد غادرت هذا المكان الذي أضحى محتلاً من طرف الضائعين والمنحرفين. فالمحطة تغير جلدها وتصبح موئلاً للأوباش».

توجه الرثمي رأساً إلى كوخ الحارس الليلي. وبعد السلام المعتاد، ضغط الحارس – في الأربعين من عمره، بدين، مسلح بهراوة طويلة بما يكفي لإدراك أي معتد، وصلبة بما يكفي لشل أي متهجم – كف المفتش وسأله عما إذا كان بإمكانه ان يقدم له خدمة. أخبره الرثمي فوراً بموضوع الزيارة. بعد تفكير قصير، التفت الحارس يمنة ويسرة، ثم سعل وقال:

–لا، لا توجد عمارة اللوتس بالساحة. أما بالنسبة للرجل الذي تبحث عنه، فكن متأكداً بانه لا يسكن هنا. لكنني سأنتبه لاحقاً، وسأخبرك بأي شيء جديد.

شكر الحارس.

أحس الرثمي، المستشعر بعض الخيبة، بقطرات عرق تتدحرج على عموده الفقري. صدم الرصيف وكاد ان يسقط. انتصب بهمة. ألا يقول المثل: «عندما يشير الحكيم إلى القمر، ينظر الغبي إلى الإصبع». أسئلة كثيرة كانت تلح عليه.

«أتكون ثمة علاقة بين نواحات المغني وهذه النبتة التي تسند إليها منافع سحرية؟ أم أن الأمر لا يعدو الوضع الثابت الذي تجسده «وضعية اللوتس»؟ أم لعل هذه العمارة تكون موجودة بالفعل، لكن المغني سعى فقط إلى تضليل موسى؟

لتحديد مسكن المغني، ليس هناك سوى إجراءين: إما التثبت لدى كل المصالح المختصة إن كانت توجد بالفعل، وإما تعقب المغني. إجراء التثبت بطيء وليس مضموناً الوصول، من خلاله، إلى نتيجة إيجابية. أما التعقب، وهو طريقة كلاسيكية، مجربة، فهو المفضل».

نظر الرثمي في ساعته. كانت تشير إلى الواحدة وبضع دقائق. من المؤكد أن الضابط الآن في منزله. راودته، للحظة، فكرة الإتصال هاتفياً برئيسه، لكنه تردد. كان يشعر بتعب شديد فعاد إلى بيته.

أحس، في فراشه، بغضب شديد مبرح ينتابه. هل كان الحارس الليلي جاداً؟ لقد تم الإشتباه في أنه يمارس تجارة المخدرات بالتقسيط. لكن الشرطة القضائية اضطرت إلى إخلاء سبيله لانعدام الأدلة. إن مهنة الحراسة الليلية تشحذ الحواس وتُسن النظر. كيف أمكن لقرش منتصف الليل هذا أن لا يكون قد شاهد شيئاً؟ أم أنه لم يكن في موقعه؟ أم لعله يكون قد فقد، فجأة، البصر؟ ومع ذلك، فهو لم يبد ارتباكاً، قبل قليل، وهو يجيب عن الأسئلة.

لم يكن للمفتش ما يكفي من حضور ذهني. كان من الإرهاق بحيث لم يطلب من الحارس تدقيقات.

سرت، فجأة، طاقة جديدة في عروقه فأذهبت عنه ما كان يكبله من تعب، فسارع إلى ساحة 11 يناير.

لم يكن الحارس في موقعه. مسح الرثمي الساحة ببصره وانسحب تحت شجرة كثيفة، بحيث كانت ساقاه مغمورتين بالظل، وشرع يراقب.

العري. العري الحقيقي هو الذي يبدو للعين المجردة، غير المقنعة. كان الحارس الليلي مراقباً دون علم منه. لم يتأخر في الظهور ثانية. كان مصحوباً برجل في الأربعين، شعره مبرقع بالبياض، متوسط القامة. كان الرجلان يتكلمان بصوت خفيظ، فلم يسمع الرثمي شيئاً من المحادثة التي كانت تدور، على ما يبدو، حول أمور جادة وسرية. شد الرجل الغريب بقوة على كف الحارس وانسحب في اتجاه وسط المدينة. تعقبه الرثمي خفية إلى أن وصل إلى فندق «المجرة»، بؤرة اللذة والموسيقى.

اقترب الرثمي من حارس النزل وقال له:

– هل تعرفني؟

– أجل.

– هذا الرجل الذي دخل لتوه، من هو؟

– لا أعرفه. هو بالفندق منذ خمسة أيام. ليس له أصدقاء. لا يخالط احداً ولا يستقبل حتى مكالمات هاتفية.

– هل يمكنك تسليمي بطاقة الفندق؟

– فوراً.

- وأن تربط لي اتصالاً هاتفياً مع المركز الرئيسي للشرطة؟

- طبعاً.

أدخل الحارس المفتش إلى غرفة في عمق الإستقبالات، وربط له الإتصال.

طلب الرثمي بصوت أجش، من زميله في الأرشيف الإقليمي، معلومات عن الشخص.

بعد دقائق أخبره المكلف بالأرشيف بالمعلومات الآتية: «الشخص المقصود تاجر مخدرات عالمي. مكنى ببباربو. ليس موضوع أي بحث».

وضع الرثمي السماعة دون حتى أن يشكره. طلب من الحارس أن يلزم الصمت.

- لم ترني، ولا تعرفيني، أفهمت؟

أجاب الحارس باسماً:

- يمكنك الإعتماد علي. لم أرك، ولا اعرفك.

- هل يمكنك ان تربط لي الإتصال بالضابط البكري في منزله؟

- بالطبع.

بعد أن استمع الضابط البكري للتقرير، أمر الرثمي بإخطار الميري وبالإلتحاق به فوراً في مقر المصلحة الإقليمية للشرطة القضائية.

قبل أن ينصرف الرثمي مسرعاً، ألح من جديد على البواب بالتزام الصمت الكامل.

اجتمعت الفرقة الرابعة.

استمع البكري مطولا للرثمي، ثم سأل الميري عن وجهة نظره. كان ذلك قد أصبح، بالنسبة للضابط، سلوكاً مأثوراً. يترك كل فرد يعرب عن رأيه ويطرح أفكاره، ثم يتدخل ليعدل ولينتقد وليركب الأفكار المبعثرة. وعندما توضع خطة، فيجب أن تطبق، لأنِ الضابط يصبح مصراً على التنفيذ، ومرؤوساه يعرفانه جيداً.

باريو، أحد رؤساء شبكة تجارة المخدرات، لا يأتي إلى القنيطرة التماساً للراحة. هو هنا من أجل العمل. هو هنا، بالتأكيد، من أجل عقد عمل، وهو رجل بلا ضمير، مفسد، خبير في تبييض الأموال. «لن تفلت هذه المرة يا باريو. ستسقط كما تسقط ذبابة في نسيج عنكبوت»، وعد الضابط نفسه خفية.

لكل واحد مهمة محددة. كلف الرثمي بتعقب باريو، مع مطالبته بأن يكون منه كظله. تعليمات: تسجيل كل اللقاءات وإحصاء مرات دخوله وخروجه، مع تحاشي الإقدام على ما من شأنه أن يؤثر سلباً على البحث.

أما الميري فقد كلف بمعرفة هوية المغني وتجميع المعلومات المفيدة من لدن المخبرين.

«ستجتمع الفرقة في أقرب وقت ممكن من أجل ضبط الأمور والتصرف. لا يقوم أحد بمبادرة دون موافقتي. مفهوم؟ حظ سعيد»، قال الضابط ملخصاً بنبرة حازمة صارمة.

ذقنه بين كفيه، لم يكن من دأب البكري – الذي جعل من الإستقامة مسألة عقيدة وإيمان – أن يسعد ببعض العناصر التي ما تزال هشة، كي يعلن النصر. إن وجود باربو في مدينة الضباب لا يشكل مؤشر اتهام، وإنما، على الأكثر، علامة محتملة، بداية قيام قرينة. وماذا لو طلبنا مشاركة فرقة مكافحة المخدرات؟ لكل خطيئة غفران. «لا»، قال بنبر متألم وذي نفس فوزٍ في الآن نفسه. «سيتهافت الزملاء على القضية وسيفسدون الخطة. كما أن ما يهم الفرقة الرابعة، بالتحديد، هو إلقاء أضواء على مقتل الأزعر وليس المخدرات». فاستبعد نهائياً فكرة المشاركة.

فجأة اجتاحته نسمة هدوء، فعاد إلى تخميناته. وماذا لو لم يكن هذا الشخص سوى نسخة مزيفة من باربو، سوى منتحل؟ هو الآن لا يملك أوصافاً لباربو الحقيقي. لكن لأي سبب يخاطر المزيف بانتحال شخصية الحقيقي؟ وماذا لو كان باربو الحقيقي يستهدف فقط اختبار فعالية الشرطة؟

4

كانت الخيبة شاملة، في اليوم الموالي، بمقر الفرقة الرابعة. كان شعوراً بالهزيمة مستولياً على أعضائها. شيء قريب من حداد. مزيج عجيني معقد.

باربو اختفى، والمغني تبخر، والحارس توارى عن الأنظار، فخبا البحث: أبيدت، فجأة، تلك العناصر القليلة المتوافرة. أفسد كل شيء. كل شيء تهدم. أي نحس!

شرع البكري يتأمل، وتبادل المفتشان نظرات متسائلة.

شعر الرثمي بنفسه سابحاً في عرقه، وتثاءب من التعب. كان، أحياناً، يكاد يغشى عليه من التأثر والإرهاق والحزن. ولام نفسه على أن لم يتصرف. شعر بالندم.

واجتيح الميري، ظاهر القلق، بموجة عنيفة من الحمى، وغدا فريسة لتبكيت الضمير. فهو، القادر على المقاومة والصبر، لا يستطيع تحمل لذغات الخزي. فحبس ثورانُ الغضب نفسَه.

عبرت ذبذبات خفيفة ذهن البكري. سيل من الفرضيات والتمثلات والصور القاسية يضغط على نفسه. انتبه الرثمي

والميري لذلك، فهما طبعاً يريان الحالة الخارجية لرئيسهما، ويلاحظان تغيراته.

يعرف البكري، جندي الجريمة، وعن تبصر، أن «كل بحث ينصب على الكائن البشري، يكون مشروطاً بحركات تيبس وخصوبة، بجفاف وإسقاء. البحث شبيه بالفلاحة؛ فهو مرتبط بالدورة التي هي بالضرورة في وضعٍ غير قار. لا يكون خبو البحث، طبعاً، إلا مؤقتاً، فثمة دائماً بصيص نور يلتمع في خضم لجة اليأس».

مرق في ذاكرة الضابط حشد من المشاهد. مشاهد تلد تخمينات تتواصل الواحد بعد الآخر مثل الزوابع، مثل الأعاصير. «هل تركت جوانب غير مضبوطة؟ هل كان ثمة تغافل؟ ليس مؤكداً، حتى وإن كان قد استنتج من التقارير ومما استمع إليه، بأن الخفة الطائشة لا يمكن أن يكون مصدرها إلا حارس الفندق أو الحارس الليلي. لكن كيف يمكن إثبات هذا الرأي السلبي المبني على قرائن عائمة، قريبة من الحدس؟ إن القرائن تتعزز وتُثَبَّت، أولاً، بواسطة المعلومات التي تقدمها الأشياء، ثم بواسطة المعلومات المنتزعة من الأشخاص».

– هل تثبتما، في المصرف، من أصل التحويل الذي تم لحساب الكاتب؟

اعتمل المفتشان وتناظرا ثم قالا:

–لا.

أخذ الضابط الهاتف وطلب المفتش الرئيسي، رئيس كتابة الفرقة:

–هل توصلت بجواب النيابة العامة الخاص بطلب التسخير؟

– وصل البريد لتوه، وأنا شارع في فرزه.

– أحضر لي طلب التسخير فوراً.

وضع السماعة وأمر المفتشين:

– هيا، أديرا محرك السيارة، ولا تنسيا مطبوعات المحاضر والآلة الكاتبة.

ثم أخبر رئيسه الإداري بالمهمة.

في الطريق نحو المصرف، كان رجال الفرقة الرابعة في حالة أسى.

وكما ليتفادى البكري انفجار سورة غضب، أخرج من محفظته صحيفة وقرأ ثم أعاد قراءة المقالة الصغيرة التي تنعي الأزعر: «صانع نثر متموج، نحّات شعر ساحر، نديُّ الكلمات المتحررة، ميديوم جُمل مشعة، مبدع أفعال موشوشة».

ثم أعاد الصحيفة آلياً إلى المحفظة. ماخور الكلمات التي تُترِع الرومانسية بحشو الألفاظ العاطفية، يزعجه بوضوح، هو الذي سخرته الأقدار لحل كل ما أُلغِز، المشايع للحقيقة القضائية التي تختلف عن الحقيقة الفلسفية الثاوية في عمق

وادي الخيارات الوجودية التي لا تكشف عن نفسها إلا بضربات معول التأويل الذي يتطلب معرفة معمقة بالإنسان، ذاك الكائن المعقد، غير القابل للسبر، والذي يحمل، مثل وشم وراثي، لعنة خيبته البدْئية. ألم يطرد آدم من الجنة؟ تقدم المازوشية نفسها، وهي بعد نفسي مبْطل، بوصفها عرفاً عدَوياً. منذ الأصول الأولى وجد الإنسان لذة في المعاناة، ثم حول، بواسطة رجات، معاناته إلى الآخر، ووجد في ذلك متعة.

هل كان آدم ضحية تدخل ذهني لم يستطع أي بحث علمي الكشف عنه، في عالم قطع كل الصلات مع مثله؟

كيف يمكن تفسير أو تبرير الشكل الحلزوني لعمليات الإغتتيال؟ ثم فكر في قبيلة الصقور والحمائم، وشرع يتلو، بصمت، المثال الذي قدمه رايموند بودون وفرانسوا بوريكو، قصد توضيح النظرية الشهيرة المتعلقة باللعب، والتي طبقها جان ماينارد سميث على توزيع مختلف أشكال العنف. «لنتخيل ان مجموعة تضم «صقوراً» و «حمائم» – يجب اعتبار هاتين التسميتين استعارتين تشيران إلى نوعين من الأفراد –؛ ولنفترض، فوق ذلك، أنه بإمكاننا أن نحدد كمياً – من وجهة نظر تأثيرهما على القدرة الإنجابية للأفراد – الأرباح والخسائر المرتبطة بمختلف أشكال المواجهات. هكذا، وفي حال المعركة التي تصل إلى الذروة، فإننا نقبل بأن المنهزم سيتجشم خسارة تقدر بـ 100 وأن المنتصر سيحصل على ربح يقدر بـ +50 إذا قاتل حتى الموت صقراً آخر وانتصر عليه؛ وأن

الصقر المنهزم سيتكبد خسارة تقدر بـ –100؛ وأنه، عندما يقابل «صقر» «حمامة»، فإن الصقر، الذي يعتبر دائماً فائزاً في هذه الحالة، يربح 50 والحمامة 0؛ وأن «حمامة» – سلوك عدواني مراقب – تحسن نتيجتها بـ 50 في حال فوزها على حمامة – الحمامة لا يمكن ان تهزم، بالطبع، إلا حمامة، وليس صقراً – وتخسر –20 في حال الهزيمة. «لـ«الصقر» الذي يواجه صقراً، إذن، أمل في الربح يقدر ب «50 – 100» x 2/1 = -52. ويمكن لحمامة أن تأمل من جانبها في «50 – 20» x 2/1 = +51, في معركة ضد حمامة. لنفترض الان أن «حمامة» – متنقلة – تظهر في مجموعة مكونة بالخصوص من «صقور»: سيكون لـ«الحمامة» أمل في الربح أعلى من أمل «الصقور». فقدراتها الإنجابية ستكون أعلى من القدرة المتوسطة للصقور. سيكون على الإنتقاء، إذن، أن يفضل التنقل، إلى أن يتم ادراك توازن ضمن البعد النسبي للمجموعتين. ونرى بسهولة أن متنقلاً «صقراً» ستكون له الأفضلية في الإنتقاء إذا ظهر في مجموعة من الحمائم».

ثم حصل لديه الإنطباع بانه يوجد في عالم عدواني شرس، تتهاوى فيه الرموز مثل قصر من رمال، عالم لا يفهم، عالم يعد فيه قتل رجل معادلاً في اهميته لكسر بيضة أو لصرع ذبابة.

عندما وقفت السيارة أمام المصرف الإقليمي، تخلص البكري من السديم الكئيب.

قال مدير الوكالة – وهو رجل أصلع، بدين، في حوالي الخمسين من عمره، يحمل نظارتين دقيقتين بإطار مذهب، لا تطرف عيناه إلا في النادر – لضيوفه، مع ابتسامة متصنعة لا يتقن إبداءها إلا المصرفيون:

– سأكون سعيداً إن استطعت مساعدتكم.

شكره الضابط وجلس على مقعد دون أن يدعا لذلك، ثم سلمه تسخير النيابة العامة.

كان الميري والرثمي يراقبان عن كثب ردود أفعال المستخدم الذي كان ظاهر التضايق. «لم تكن، البتة، علاقة الشرطة القضائية بالبنوك علاقة ود. لا تختزن ذاكرة مدير الوكالة هذا أي بحث للشرطة القضائية كانت له تأثيرات إيجابية. لا يحب عِلية القوم ولا الناس العاديون تبرير مصادر أموالهم. ثم إن المال يذهب حيث توجد الثقة. كما أن الثقة لا توجد إلا حيث توجد العتامة. ينتج عن ذلك ببساطة، نزوع كل المصارف إلى حماية أسرار الحسابات: للمردودية إكراهاتها! التسخير يهتك السر، وليس العتامة».

أفرز المصرفي عرقاً، رغم الجو المنعش، وهو يتأمل لائحة الحساب. وبالفعل، فقد كان على علم بحركات الحساب المفتوح باسم الكاتب، وفوجئ بأهمية المبلغ المحول من طرف الشركة الوطنية للإستثمار التي توجد بإسبانيا، في منطقة مالقة. لكنه، وكما هو الشأن بالنسبة لكل مصرفي في أية بقعة من الدنيا، لم ينبس ببنت شفة عن اللائحة.

بقلب مجروح وذراع كسيح، مد لائحة الحساب إلى الضابط. كانت الوثيقة ناطقة. المال المتوصل به، حول فوراً إلى حساب في مصرف كبير بالدار البيضاء بأمر من الأزعر الذي كان الحساب يحمل اسمه.

نظر البكري إلى ساعته. كانت تشير إلى السادسة مساءً. أودع الوثيقةَ محفظتَهُ وشكر المصرفي.

موسم التبيس يعقبه موسم الخصوبة. باب انفتح لتوه. «هل كان الأزعر بالإستقامة التي كانت تظن فيه؟ ألم تكن «الشركة الوطنية للإستثمار» إلا شركة لبيع العتامة؟ أتكون الفرقة أمام قضية عظمى تتعلق بتبييض الأموال، لا يشكل الأزعر منها سوى الظاهر من جبل الجليد، سوى حلقة ضمن أخريات؟

لعن البكري في سره مايرلانسكي، المحاسب الشهير لآل كابوني، الذي كان أصل ممارسة التبييض. «المال؟ إنه عالم مشكل من قليل من المرئي ومن كثير من اللامرئي»، قال الكومندان ليت، المكون الفرنسي الذي كان يدرس المدارات المالية للتبييض، بالأكاديمية الملكية للشرطة.

«فيما مضى، قال الكومندان، لم تكن للمال رائحة، واليوم، ليست له لا رائحة ولا لون. تستغل شبكات الجريمة العالمية أي خوَرٍ للمؤسسات الزجرية أو الوقائية، وكل الإمكانيات التقنية، انطلاقاً من الحوالة هندي، وحتى الحاسوب المحمول المزود بلوجسييل وبهاتف، مروراً بنظام الويب، وهو إجراء يسمح

بتحويل الأموال من حساب إلى آخر، انطلاقاً من أي بلد، بواسطة الهاتف، عبر الأنترنيت».

أما في حال المال العيني، فإن الأمر يتعلق بنظام يسمى «سمورفينغ»، وهي عملية تنجز من قبل «نمل» متواطئين يتلقون الأموال الموجهة للتبييض على حساباتهم الخاصة، ليوجهوها بعد ذلك إلى حسابات أخرى.

ألم يكن الأزعر سوى نملة؟ نسخة مالية لراع؟ والشركة الوطنية للإستثمار، هل هي شبيهة تلك البنوك المقرصنة، الساترة، التي تحول عمولات سخية لفائدة وسطاء؟

هل خرق الكاتب قانون المحيط بالإستيلاء على كل القدر المحول؟ هل صحيح أن نهاية بحث تكون راجعة، أحياناً، إلى صدف لا تصدق؟ لكن «أحياناً» فقط. ففي الغالب الأعم، لا تحل الألغاز إلا بواسطة أبحاث حثيثة ضمن لجج مَعْمُورة بحالات غرابة لا تصدق».

صمت محرك السيينا، فكفت الإجترارات.

توجه البكري إلى مكتبه، روحه ملفوفة في سحابة ضخمة.

ثم اجتاح دوار جسده. شرع يحادث نفسه عن هذه الفضيلة التي تسربت من الثقب المحفور من الأكاذيب، من هذا الهزلي الذي ينحي التراجيدي، من هذا الحمق الذي يمرق من النصوص المشوهة، من هذه الرموز المتحولة إلى دمىً من خرق.

كاد الضابط أن يغشى عليه، منهوكاً من الأسئلة التي كانت تجسد خليطاً من الحقائق ينافس فيها الشكُّ العماء.

وشيئاً فشيئاً شرع الدوار يضمحل، وبنفس النسبة أخذت تتعمى الحقيقة المبحوث عنها بهمة، المبهمة للغاية، أو بالأحرى الحقيقة المبرقعة.

أخبر البكري العميد، رئيس المصلحة الإقليمية للشرطة القضائية والنيابة العامة بحال البحث وطلب إذناً قصد التثبت في مصرف الدار البيضاء.

– لقد توصلتم، دون شك، إلى نفس الفرضيات التي وصلت إليها، قال الضابط لمساعديه. إن الحقيقة تتجاوز احياناً الخيال. لكنها تنتهي بالسطوع، عاجلاً او آجلاً.

أنارت ابتسامة خفيفة وجه رئيس الفرقة الرابعة. فهم مساعداه. بللا شفاههما ولم ينبسا.

أطلق البكري هذا الأمر:

– غدا سنذهب إلى الدار البيضاء. نلتقي بمقر المصلحة على الساعة السابعة تماماً. والآن اذهبا إلى حال سبيلكما.

لم يكن للميري وللرتمي، المنهكين بمآخذ داخلية والمجتاحين بمشاعر باطنية، رغبةٌ في العودة إلى مسكنيهما. كانا فريسة لتأنيب الضمير، لشعور حزن شبيه بندم كئيب. كانا صامتين. غادرا، في جو مثقل، مقر الفرقة ومشيا في

الطريق جنباً إلى جنب دون أن يتناظرا، ودون أن يكلم أحدهما الآخر، منهكين من جلبة صماء مقطوعة بصمت خانق.

القنيطرة، هذه اللامدينة، بلدة التيه المتضخمة هذه، هي أيضاً خيمةٌ للظواهر العرضية الغامضة. وربما لم يكن الأزعر سوى واحدة منها. كان حجالمار بيرغمان، الكاتب السويدي المتوفى سنة 1931، يحب ان يكرر: «نولد آدميين، ونشيخ ضواري». يا لها من حقيقة مفجعة. أي سلب للذات. أي سقوط. اذهبوا واعرفوا.

كان الرجلان، المجرحان من الإنفعال وخيبة الأمل، يتسكعان في الشوارع التي لا يسمعون فيها إلا الأزيز والوشوشات غير المفهومة.

«رغم وزن مدينة الدخان هذه، فهي ذات حساسية من أي استشفاء. هذه المدينة، المشوهة في شكلها والرتيبة في نبرها، قد وجدت من أجل الجرائم الغامضة. هي سرداب ضخم! أفعى بحرية! مدينة تخنق الأحلام والأفكار».

كان المفتشان، بسيقانهما المترنحة، وركبهما المضطربة، مشدوديْ الأعصاب عندما ولجا السقيفة الكبرى.

فهمت هند من حالتهما المتعبة أنهما يعانيان من بعض الخيبة. قدمت لهما جعتين باردتين، مع ابتسامة متواطئة. شرب المفتشان بعصبية وطلبا جعتين أخريين أكثر برودة من الأوليين.

كانت السقيفة الكبرى، الغارقة في الأدخنة الملتوية والأنفاس المخمورة، تتخذ بشكل غريب إهاب سفينة تتقاذفها الأمواج. كان السكارى ضائعين في هذا الطقس الممتد من الكآبة ومن أضغاث الأحلام المسكونة بالحنق وبالشفقة. هل يتعلق الأمر بهاجس؟ اخترق مصرع الأزعر المدينة من أقصاها إلى أقصاها مثل نثار بارود.

«ماذا تفعل الشرطة التي نؤدي أجرها ونطعمها؟»، تساءل بمرارة ممرض، هو أخ لوزير منخور بالسكري وبالفساد. كان هذا الممرض الصغير الذي يستغل موقع أخيه، يقضي من الوقت في العمالة اكثر مما يقضيه في المركز الصحي. جمع بسرعة ثروة وغير زوجته وشرع يحلم بمنصب العامل. كان يقول للمحيطين به الذين تكاثروا في أيام معدودة: «المسألة مسألة وقت لا غير. ستحصلون جميعاً على نصيبكم. هذا البلد هو عبارة عن حلوى عظيمة». ولسوء حظ هذا الممرض، استغني عن اخيه، فتبددت اوهامه وما عاد يعرف أي ولي يتمسح به. انفض المحيطون به من حوله في يوم واحد، وما عاد احد يجرؤ على الإقتراب منه او محادثته. هكذا هي طبيعة الصداقات في هذه اللامدينة! كاد الممرض ان يفقد عقله. إن هؤلاء السادة لا يحيون إلا على الرغبات المكبوتة. هم نهمون إلى السلطة والأرباح المادية والجنس. لكن الله كبير.

يقوم الممرض، متمايلاً، بجولة في السقيفة الكبرى موزعاً شرارة من الحنق. «ملهاة ساخرة في اللامدينة، حيث يحب

الناس ويكرهون، يباركون ويلعنون حسب سياق الأحداث والمجالب والتناقضات، متحينين الفرص للحصول على معروف أو منصب غير مستحق أو امتياز، بكلمة، من أجل خرق القانون. أية امرأة مسكينة هو هذا القانون! حالات اغتصابه فوق العد. لقد فقدت هذه المرأة، التي هي القانون، المسكونة بأطياف العنف المتكرر، بالتدريج، حساسيتها وعذريتها وكل رغبة في أن تطبق. أصبحت محارة مخرومة، هشة».

كان الميري والرثمي يشربان ويلاحظان صامتين، شبه منومين مغنطيسياً. لقد كانا آخر الباقين من أولئك الحراس الذين ما يزالون يؤمنون بتوبة الناس وبرد الاعتبار للقانون في هذا العالم الجديد بكافكا وهيتشكوك! عالم أصيب بعجز حسي واجتيح فجأة بمغامرين قادمين من لا مكان.

قُطع حوار التأمل الصامت والأجوف، فجأة بمجيء موسى.

– أنا أبحث عنكما، قال. هل يمكنني ان أحادثكما بعيداً عن هذا المكان؟.

أدى المفتشان وسارعا إلى خارج السقيفة الكبرى. فلموسى من غير شك أمر مهم يريد الإفصاح عنه، معلومة يريد قولها، خاطبا نفسيهما.

في زنقة صغيرة مظلمة، خالية، مغبرة، حك الخادم رأسه وقال: «لقد قمت ببحثي الصغير، وهذه هي النتائج:

اسم المغني هو ميد، ويعيش من تجارة المخدرات والتزوير والنصب. ينتمي إلى عائلة فقيرة من تادلة، واقترن بأرملة فرنسية عجوز كانت قد استقرت بالقنيطرة من زمن طويل. حصل ميد على الجنسية الفرنسية وكون ثروة وسعى إلى زوجة ثانية. وكان حتى قد واعد بالزواج فتاة تسمى فكرية، وهي نادلة بحان في الرباط. لكن العجوز التي كانت تحب ميد، كانت مستعدة لكل التضحيات. كانت حتى قد أوجدت له اسماً دالاً هو ابن آوى الأبيض، ربما بسبب بياض بشرته، وربما لكونها لم تكن، رغم الحب الذي كانت تكنه له، تثق فيه كلية وكانت تتنبأ بخاتمة غير محمودة لعلاقتهما. تحقق هذا التنبؤ. اختفت المتنبئة العجوز في ظروف غامضة. وما عاد ميد الذي تركته فكرية «التي أصبحت معبودة غني إماراتي» يتحمل الحياة إلا بواسطة الغناء والكحول. ا.ل، ليس أي أحد آخر غيره. ميد، ابن آوى الأبيض، الرجل المتعطش إلى المال والجنس والخمر».

توقف موسى عن الحديث، وبقي المفتشان مذهولين. عض الخادم، المتأهب للمتابعة، شفتيه وتردد.

ألح الرثمي:

– وباربو؟

– هو صديق ا.ل. أحد زعماء تجارة المخدرات. يقطن إسبانيا، في مدينة صغيرة اسمها كاسا برميخا، في منطقة مالقة، على الطريق السيار. كان له بالتأكيد موعد مع ميد هنا بالقنيطرة.

– وما موقع الأزعر من كل هذا، تساءل الميري؟

ركز موسى، الذي يبدو مرهقاً بعض الشيء، بصره عليه وقال:

– كانت العجوز صديقة الكاتب المرحوم.

تبادل الميري والرثمي، المأخوذين بين استطراد محير وبريق غير منتظر، نظرات خفية وطلبا من المستخدم ان ينتظرهما في بيته، إلى أن يقوما ببعض التحريات.

بعد ذلك، أخبرا رئيسهما وتوجها إلى منزل فاطمة، خادمة الأزعر.

بفتور وبرأس ثقيلة، شعرت فاطمة، خادمة المرحوم الأزعر، فجأة بنفسها تُرج بارتعاشات عندما طلب منها المفتشان الحديث عن زوجة ميد، الملقب بابن آوى الأبيض.

– كانت امرأة طيبة. لم يكن فيها شيء من أولئك النصارى المتعجرفين الوقحين. كانت مختلفة ومتواضعة. كانت تزور الأزعر بانتظام، وخصوصاً خلال المساءات. كانا يتحدثان في امور لا أفهمها ويضحكان. كانت تجمعهما صداقة وثيقة.

صمتت فاطمة، وكان صمتها، كما يقول الوضعيون المناطقة، قابلاً للقياس والتأكد. كانت تحمل شقاءها في محمل غير مرئي. «هذه هي حياة امرأة من الشعب. تكون مرتبطة بالآخرين وبالأقدار. لا تكون أبداً مستقلة بذاتها. هكذا عاشت فاطمة قريبة من الأزعر ومن زوجة ابن آوى الأبيض.

كانت تسمعهما يتحادثان ويضحكان، دون ان تفهم أبداً لغتهما. وكان هذا يحزنها بعمق. أحياناً، وعندما كان الأزعر يغيب عن البيت، كانت فاطمة تتسلل إلى مكتبه وتتأمل طويلاً مخطوطاته. وهي مخطوطات مشكلة من علامات، ففهمت بالغريزة بأن هذه العلامات هي التي تحدث الفرق بين الناس والأعراق. الذين يستطيعون تفسيرها، الذين يجعلونها تتحدث هم أصفياء الله رب العالمين.

انتهت بأن نسجت، خفية، علاقات نفسية مع العلامات، مع المخطوطات، إلى درجة أنه عندما كف الأزعر عن كتابتها، حزنت وغاصت في نوع من التمزق. لقد أضحت سجينة وقار الأيقونات».

تأملها المفتشان وحاولا ان يميزا على محياها اهتياجها الداخلي.

«في كل الأبحاث البوليسية، هناك دائماً بعد تخييلي. الشرطي لا يتحاشى الألغاز ولا يستطيع ذلك. المتخيَّل النشيط يشيد عوالم في حضن عكس الحقائق المعرب عنها بواسطة جمل تلتمس عكس ما تؤكده».

اقترب الميري من فاطمة وقال لها:

– هل يمكنك أن تكوني اكثر وضوحاً؟

أجابت، بعد بضع لحظات من التردد:

– أطرحا علي أسئلة. ما الذي تريدان معرفته؟

اهتبل الميري الفرصة:

– ما اسم زوجة ابن آوى الأبيض، زوجة ميد؟

– فرانسواز.

– متى تعرفت على هذه السيدة؟

– منذ أن أصبحت في خدمة الأزعر.

– آخر مرة رأيتهما؟

– فرانسواز اختفت. ولا أستطيع ان أقول لكما متى كان ذلك بالضبط.

– وميد؟

– منذ أسبوع فقط.

– هل سمعته يتحدث عن فرانسواز؟

– لا.

– هل لك معلومات عن اختفائها؟

– لا.

– هل تكلم الأزعر عنها؟ هل سبق له، ولو لمرة واحدة، أن تحدث عن فرانسواز؟

– لا.

- هل سبق لك أن سمعت حديثاً عن شخص يدعى باربو؟

- لا.

- هل كانت فرانسواز تزور الأزعر بمفردها ام مع زوجها؟

- أحياناً بمفردها، وأحياناً رفقة صديقها.

- عندما كانت تأتي بمفردها، أي وسيلة للنقل كانت تستعمل.

- الطاكسي.

- وعندما كانت تعود إلى بيتها؟

- كان الأزعر يستدعي الطاكسي.

- سيدتي، شكراً. ألف شكر.

مستبعد. لا. لا يمكن للأزعر أن يكون قد ارتبط بصداقة مع ميد، وبالأحرى مع باربو. لكن رائحة مغْثية كانت تحلق في الهواء. كانت عفونة رائحة مال قذر تموج مع الهواء.

- ما رأيك في ان نزور عائشة؟ هي لا تقطن بعيداً عن هنا، اقترح الميري.

- فكرة جيدة، أقر الرثمي.

«كانت عائشة، وهي صورة متخلفة لأولئك المنبوذين الذين يرفضون أن يستكينوا للكسل، تصارع من أجل الحياة، بل وحتى من أجل توفير بعض المال. كانت تحلم ببيت ويزوج. وكما هو الحال في كل المجتمعات المتخلفة، كانت هذه المرأة الشجاعة

تخفي حلمها تحت هيكل الأعراف. وعندما كانت امرأة تسألها: «هل عثرت على الرجل السعيد؟»، كانت عائشة تشعر بسهم يخترق قلبها. ما كان بإمكانها ان تقول الحقيقة. لم يكن بإمكانها أن تقدم جواباً تندم عليه. كانت تعتَمر محياً فظاً وتتلفظ أكاذيب وهي ساخطة: «هل أنا سانجة؟ هل فقدت عقلي؟ يكفي ان نفتح أعيننا لنرى. ليس هناك سوى جرذان بالوعات، سوى أشخاص زائفين. لا يمكنني أن أعول متطفلين مجردين من أية كرامة، مخبولين عاطلين. لست لا مغفلة ولا بليدة. من يمكنه ان يصدق؟»

قرع الرثمي الباب بلطف، فظهرت عائشة لابسة سروالاً فضفاضاً كانت تحبه كثيراً. حيتهما بابتسامة خفيفة. شملها المفتشان بنظرهما. فهمت عائشة، فحركت رأسها، وهي متكئة على الباب، من اليمين إلى الشمال.

لم يلح المفتشان، وحركا رأسيهما دلالة فهم. عائشة لم تكن بمفردها. لم يكن لديها شيء تقوله.

وبالفعل، فهي لم تسع للإستعلام عن سيرة جارتها، ببساطة، لأنها كانت واقعة في غرام مفتش جمارك كلفه رؤساؤه بمراقبة المهربة الشابة.

كانت عائشة، تلك القديسة المتخابثة، قد ذابت، من النظرة الأولى، تحت دفء عيني هذا المفتش المحنك في تقنيات الملاحقة. كان مديره الإقليمي يلقبه بالجدي، بسبب عينيه المشعتين وسيره الحثيث. وسرعان ما وجد المفتش في عائشة ألف ميزة:

«خليقة رائعة، تلقح الأرواح الجامدة بالأحاسيس. ثمالة محتدمة تحيي القلوب الصدئة من تقلب الأحوال. إثارة لطيفة تسقي الأذهان المجتاحة بالشقاء. امرأة فاتنة تنير ألغاز الإشارة المعقدة. وردة متفتحة تنثر العطور في ظلال الهاويات. بها تلتئم ثقوب الذاكرة والجراح النازفة. هي يد ممدودة لغريق. هي طافية إنقاذ ترسو في كل موانئ الإندحار.

عائشة حورية أسطورية تنير، مثل شمس، السفوح الظليلة للحيوات المجزأة».

كان الميري والرثمي يمشيان محدودبي الظهر، أيديهما في جيوبهما، وهما يفكران: «في كل هذا، ثمة أمر غير واضح. الخديعة والدسيسة توأمان سياميان. كان الأزعر يجيد الدسيسة، ويرمق الخديعة، ربما، ببصره. فكما يؤكد المثل الإسباني: «لا شر يأتي من حيث لا يأتي خير». ومصرع الأزعر سيلقي، من غير شك، بعض النور على العلائق الخفية في هذه اللامدينة. لقد بقيت القنيطرة – التي خرجت من خيال المعمر المفتون بثروات وسط البلاد – كما هي منذ ان خلق الله الدنيا. بنى بها الأمريكيون قواعد وتزوجوا نساءً وأتوا بنمطهم في العيش. القنيطرة، التي هي تجمع سكني يسوده التسامح، هي أيضاً فضاء للاتجانس الاجتماعي، مركز لصورة أبنال المقلوبة، وللإقصاء الإقتصادي وفضاءً لسراب خادع.

لقد أصاب فرانسوا شاتلي، بالتأكيد. لقد «أجاد النظر»،

وهو يختار بعض القطع المعبرة التي لها علاقة بواقع شديد التعقيد و«يمكن لألتوسير أن يقدم البنية الإقتصادية لمجتمع بوصفها حقلاً للمشاكل التي تفرضها على نفسها؛ التي هي مصممة على أن تفرضها على نفسها، والتي تجد لها حلولاً اعتماداً على إمكانياتها الذاتية، أي اعتماداً على خطوط التميز التي تتحين البنية وفقها، مع الأخذ بعين الإعتبار، حالات السخافات والخزي والقسوة التي تحملها هذه «الحلول» بسبب البنية».

تدين القنيطرة لبنية لم يكن لها عليها أي سلطان. لقد كانت البنية «هبة»، منحة، قراراً من جانب واحد. إن استقلال البنية، بالنسبة للتوزيع الإرادي لهذا التجمع السكني المسمى مدينة رغم انفه، لم يكن بإمكانه، منطقياً، ان يوَلِّد إلا حالات الخزي. إن أمر خلق بنية، في غياب باقي الإعتبارات غير إشباع مصلحة تريد لنفسها حتى ان تكون عامة، لم يكن بإمكانه، في أحسن الأحوال، سوى أن يترجم إلى عقدة تميز. وكما يشير إلى ذلك، بكثير من العمق، الكاتب الذي يذكره شاتلي، فإن «البنية، هي في ذاتها، نسق من العناصر ومن العلائق المتمايزة؛ كما أنها تمايز الأصناف والأجزاء، الكائنات والوظائف التي تتحين ضمنها. فهي تمايزية في ذاتها، ومميزة في تأثيرها».

بهذه الشاكلة يفسر نعت اللامدينة. وبذلك يكون قتل الأزعر تمايزاً وتمييزاً، على صورة هذه البنية التي شكلت، منذ نشأتها، هذا التجمع السكني متعدد الأشكال، الذي لا قالب له ولا قلب، والذي يمشي مقطوع العنق مفقوء العين.

كان يكفي عائشة أن تعثر على عشيق كي تنسى أوامر مراقبة جارتها. لا أحد هنا يجد غريباً حباً يربط جمركياً بمهربة، فذلك يدخل في إطار اليومي. التناقضات وراثية، هي عملة قابلة للتحويل، إرث مشترك منقول من الآباء إلى الأبناء، أثر اجتماعي، ثمن للتكوين، هو ضمان للبنية المصعدة حتى لا تختزل إلى تراب، إلى غبار، إلى وهم.

من زمان عرف الناس هنا كيف ينفثون المشاعر ويدجنون الرغبات وينسون المغامرات. هم يقتاتون من الوساويس والتعريضات والتبادلات الكلامية ومن سيول التفاهات والمهازل الساخرة والهراءات المضحكة.

هل اختار الأزعر أن يقطن القنيطرة لأن التجمع السكني مشكل من مقاطع متفرقة، من كثير من العتمة ومن قليل من النور؟ ولأن السكان المهملين منشغلون بتطريز الفراغ؟ أم لأن الكاتب كان بإمكانه ان يذوب في المشهد مثل حرباء؟ أم لعل ذلك راجع إلى كون لا أحد – في عالم أخلاه الأبالسة في لحظة من كل فضيلة – استطاع يوماً أن يربح دعوى ضد نفسه، ضد حالات البؤس المعتمة، الفظة، الصارخة، التي تثوي في الأزقة المصعوقة بالهوان، المصفوعة بالعدم؟ أم لأن السراب هنا، وأكثر من أي مكان آخر، هو اكثر كثافة، والحيوات اكثر انسحاقاً بفعل الكحول والهموم، والعيون مصابة بالرمد والنظرات بالعمى؟

هل كان ينعم في مستنقع الغباوة؟ هل كان يعثر فيه على تلك الحقيقة الغائبة في مكان آخر؟ هي حقيقة مجردة من اللوينات، حقيقة مشنوقة بفعل التقزز من حياة رمادية. وهي حقيقة كان الأزعر يمتلكها لوحده.

هل كان الكاتب يتطهر في فضاء الغرابة هذا، المسور والمرتق بالنتانة؟ أم لعله يكون قد عثر على الفرجة التي لا احد غيره عثر عليها لمشاهدة الغرابات والوشوشة بالمضمرات والتذكير بما هو عارض؟

كان البعد المتعدد للمعيش يوفر، ربما، لهذا المؤلف الشغوف المادة الضرورية لبناء الخيال، أو بعض مقاطع السرد الذي يتسكع فيه الحلم الغريب والرغبة في الإستسلام للقدر.

القنيطرة – التجمع السكني المتخلف – هي أيضاً دمل وجودي، فضاء مشقوق بالمرارات ومفلوح بالرغبات غير المتحققة. هي محيط مضمخ بالغيرة، شريط دقيق من التعب يعيش الزمن ويتحمل التاريخ، كوكب يمشي نائماً، مكهرباً بالهلوسات وحالات السراب، مسار أقدار ممزقة، سفينة شراعية بلا قائد...»

كان الميري والرثمي يمشيان في الطرقات أعميين، الظهر محدودب، والأيدي مغموسة في الجيوب. كانا ساكنين، وما عادا يفكران.

5

بالدار البيضاء، وفي شارع كبير دائب الحركة، لم تكن الوكالة البنكية، حيث توجد الفرقة الرابعة هذا الصباح، تنقص في شيء عن الوكالات الأمريكية أو الأوربية. «صحيح، فالدار البيضاء هي جزء من اوروبا يوَشِّي قارة افريقية مريضة، مسلوبة، ممصوصة، متروكة لمصيرها الذاتي. تقضي النخبة، في هذه القارة، وقتها في التآمر وفي الغش والتزوير. أفريقيا هي القارة الوحيدة التي ترزح تحت نير الإحتقار والذل الذي تفرضه عليها نخبها. كل الذين يعرفون بالكاد القراءة والكتابة، يشرعون في الحلم بمناصب عليا، وفي التآمر ضد أقاربهم وإثارة سورات رؤساء القبائل السياسيين الجدد عليهم.

وهكذا، فإن كل مآسي القارة تأتي من المدارس؛ كانت أفريقيا سعيدة بجهلها وبأميتها، أما اليوم فهي جماعة حاشدة من المتآمرين، لا أقل ولا أكثر. للسيطرة والحفاظ على السلطة، لا مناص من حشد من وكالات الإستخبارات. توجد اليوم بأفريقيا، القارة الأكثر اكتفاءً، من وكالات التجسس أكثر مما يوجد من مكاتب التنمية».

تذكر البكري فجأة كلام الكومندان ليت: أثناء القيام ببحث «يجب البحث عن أفعال قبل التخمينات».

قدم البنكي – ذو القامة القصيرة والعينين البراقتين والذهن المتقد، خدماته بأدب متصنع، ثم فحص بدقة تسخير النيابة العامة الذي سلمه الضابط إليه.

نادى المصرفي على مساعد لا يقل عنه تصنعاً، وطلب منه ان يقدم لرجال الشرطة كل المعلومات المتاحة. وعد المساعد، الذي اعتاد القيام بهذه المهام، أن يقوم بذلك فوراً. وعندما ألقى نظرة على الإسم ورقم الحساب، همس: «لكنني أعرف هذا الحساب واسم صاحبه».

فقال الضابط:

– هل يمكنك أن تكون أكثر وضوحاً؟

– ذلك أن انتباهي، من زمان، قد استرعته هذه التحويلات التي يقوم بها شخص يقطن بالقنيطرة لصالح جمعية خيرية.

– ماذا تقول؟ جمعية خيرية؟ عقب الضابط باستغراب.

– أجل، سيدي.

لم تزد رغبة البكري في معرفة المزيد إلا استشراءً:

– ما اسم هذه الجمعية؟

– «قلوب رحيمة»

– أين يوجد مقرها الرئيسي؟

– على الكورنيش، غير بعيد عن ضريح سيدي التقي. يمكنني مرافقتكم إن شئتم.

– سنرى.

– طيب. أذهب للبحث عن المعلومات. نلتقي بعد حين.

تناظر الضابط ومساعداه خفية. شعروا بانهم على المحجة.

«هذا البحث، الذي أعلن عن نفسه، في البداية، طويلاً ومعقداً، هل هو الآن في طريقه إلى الحل؟»

ارتسمت مجموعة من السيناريوهات، يعد أقربها إلى الواقع سيناريو تحويل. الأزعر الذي قبل الإنتماء إلى هذه الشركة المزيفة، كانت له بالتأكيد مآرب أخرى: تلقي هذا المال القذر وتحويله إلى حساب جمعية خيرية. وبذلك يتمكن الفقراء والمعوزون من امتلاك ما قد يكونون فقدوه في لعبة القواعد المعقدة المشكلة من فخاخ لا يحسن الإستفادة منها سوى الماكرين والخبثاء. أما قبيلة البلهاء فلا تقتات إلا من المبادئ المثالية. المكتوب هو المكتوب. والحكمة تكمن في ترك مصيرها في الإنتظار. العدالة ليست إنسانية. ولماذا إرهاق الذات في تشييد هذه العدالة، والحال ان الإنسانية محكومة بالفناء؟ وبذلك تكون الخلاصة معروفة: ما الفائدة من بذل جهد في إلهاب المتخيل من اجل الولوج أكثر في هذا الشاسع الذي لا نهاية له؟ يعد «اغتيال الفضيلة» سلوكاً عادياً في مجتمع لم يحدد نفسه بعد.

ما الذي عسانا نقوم به عندما نكون محرومين من النور؟ تلك الكتلة اللامادية التي تسمح بمسح الفضاء وبأن لا نخدع بالمظاهر المثبتة على أرض ما هو سطحي.

هل انساق الأزعر بهذه السرعة، إلى درجة أنه قد قبل الإشتراك مع قوى الشر، جراميز العصر الحديث هؤلاء، دون ان يتساءل عن عواقب هذه المؤامرة؟ لا. ثمة بالتأكيد أسباب أخرى يجب معرفتها. وكي تعرف، لا مناص من الحفر اعمق في هذه التشكيلة من الألغاز. إن طيش الكاتب لا يمكنه ان يفسر ارتباطه بالفعل الإجرامي، حتى وإن بدا الباعث نبيلاً يستدعي التعاطف.

هل ضحى بحياته من أجل المحافظة على مبدأ العدالة الذي كان يؤمن به بقوة؟ لكن كيف امكنه ان يقبل هذه التضحية؟

الفرضية الأولى: استدرج الأزعر إلى كمين وقتل بالرصاص كي يكون درساً لكل أولئك الذين قد تسول لهم انفسهم خيانة القضية.

وبذلك يكون اغتيال الكاتب عقاباً مثالاً.

الفرضية الثانية: كان الأزعر يعرف انه سيتعرض لبعض المضايقات، لكنه لم يعتقد بأن شركاءه يستطيعون اقتراف الأسوأ، أي قتله. قال مع نفسه بأنهم، في أسوأ الحالات، لن يكون أمامهم أي سبيل آخر غير الصفح عن الجرم، أي «الخيانة»، ثم فسخ العقد والاختفاء. أما إن مسوا بحياته، فسينتهون عاجلاً أو آجلاً بالوقوع في شباك العدالة. والحال ان

أشراراً من هذا الصنف لا يشتغلون دون أن يضعوا في اعتبارهم الوقوع وإلقاء القبض عليهم.

الفرضية الثالثة: كان الأزعر على يقين من ان احداً لن يطالبه بحساب. هلِ يكون قد أخِذَ على حين غرة؟ هل يكون رد فعله قد كان سيئاً عندما طلبت منه العصابة تفسيرات؟ هل يكونون قد شكوا في تصرف غير متقن صدر عنه، أم أن أحد تجار المخدرات قد يكون نقم عليه؟

الفرضية الرابعة: استعمال السلاح الناري معناه ان العصابة لا تخشى شيئاً ولا تتراجع امام أي شيء عندما تكون مصالحها مهددة. والأزعر نفسه لا يمكنه أن يشذ عن هذا المنطق الثابت. الدم الآدمي رخيص، وليس ثمة، في الغالب، إلا الدم لغسل خديعة او مسح آثار تدليس.

سلم الموظف المصرفي المعلومات للبكري واقتعد كرسياً وهو يفرك جبهته بلين. فهم الضابط ان للمستخدم معلومات أخرى، فأشار عليه بالكلام.

- إن الأموال المحولة تفوق، تفوق بكثير حاجيات الجمعية الخيرية.

- كيف عرفت ذلك؟ تساءل البكري.

- أعرف الجمعية ونزلاءها.

- وهل تعرف المسؤولين عليها؟

- أجل.

- هل يمكنك تقديم بعض التوضيحات؟

- يبدون مسؤولين نزهاء. لكن أن يسحبوا التحويلات أولاً بأول، يبدو لي ذلك مشبوهاً. يمكنكم التثبت. ماذا يفعلون بكل هذه الأموال؟

شكر الضابط الموظف ورئيسه على تعاونهما، وانسحب مع مساعديه.

-إلى أين يا سيدي؟ سأل الرثمي الذي أدار محرك السيينا السوداء.

إلى مقر الجمعية الخيرية، على الكورنيش. في الطريق سنتوقف في المصلحة الولائية للشرطة القضائية لنخبر الزملاء ولنطلب مساعدتهم.

- حسناً سيدي.

كانت المصلحة الولائية للشرطة القضائية للدار البيضاء أنفا توجد بمقر ولاية الأمن.

كانت حركة المرور بالدار البيضاء شديدة الكثافة. كان سوء استعمال الطريق يسبب في جلبة مصمة، وكان شرطيو المرور الذين ما عادوا يتحكمون في الوضع يكتفون بإطلاق صفاراتهم وبالإكثار من الحركة والصراخ.

لم يكن «بقلوب رحيمة» سوى خمسين نزيلاً؛ أربعون طفلاً وعشر فتيات، يأوون إلى فيلا من طابقين.

«هذه الفاكهة الغريبة، هؤلاء الأطفال قدموا إلى الوجود وحيدين محرومين من الأحلام ومن العطف.

تعتبر هذه الجرذان الآدمية التي أهملت في الأزقة وعلى أبواب العمارات، سبة في جبين عالم منافق، لاهث، عالم الإخفاق واللعنة الملْتَهم بإعصار الأنانية، والساحق، بابتهاج غير مفهوم، لمصادر النور والعاطفة. عالم دببة ووحوش. عالم يتحرك بوجهين، مسكون بالأغراب ومترع بالجور. عالم مستعبد بجدلية العنف والجريمة، محكوم بمعادلة الكراهية المستشرية والمقت المتأجج. عالم بربري. عالم منتن، مصاب، لا يطاق.

في أي عالم أيتها الفاكهة الغريبة ستعيشين وبأية طريقة؟»

هكذا كان الضابط البكري يفكر خلال كل الطريق، مصحوباً بزميل من الشرطة القضائية للدار البيضاء وبمفتشي الفرقة الرابعة.

قدم الضابط نفسه لمدير جمعية «قلوب رحيمة»، وأخبره شفوياً بموضوع الزيارة.

بلطف أبدى المدير المسمى صدقي والملقب بالطالبان بسبب لحيته قليلة التشذيب، تعاوناً كبيراً.

- أيها السادة - قال بكثير من الثقة - لقد نصبت من طرف مجلس إدارة الجمعية الخيرية «قلوب رحيمة»، وأنا اتحمل هذه المسؤولية منذ نشأة الجمعية من أربع سنوات. أرسل الأزعر، الذي لم أره مطلقاً، ثلاثة أشهر بعد تأسيس الجمعية، رسالة يقترح فيها أن يتحمل جزئياً النفقات. ونظراً لاعتباره وموقعه، قبلت هذا العرض. بعد ذلك بأسبوع، استقبلت مبعوثاً يسمى العربي نيبرو قصد مناقشة وتحديد مساهمة الكاتب. أوحى إلي هذا المبعوث بكثير من الثقة فأطلعته على ميزانية الجمعية وعلى حاجياتها المادية لتغطية المصاريف. أنصت إلي العربي نيبرو مطولاً، ثم قال بوضوح: «السيد الأزعر مستعد لتحمل كل هذه النفقات، لكنه يطالب بالتكتم الكامل على اسمه. هل تلتزم بضمان هذا التكتم؟» أجبت دون تردد بأن الشرط مقبول.

بعد لحظة صمت وجيزة، تابع نيبرو: يأمل السيد الأزعر في أخذ الأموال التي لن تستعمل كي يوجهها لأعمال اجتماعية اخرى. وسبب ذلك راجع إلى رغبته في الحفاظ على التكتم وتجنب كثرة الأسئلة. هل تقبل هذا الشرط؟ نعم، أجبته.

«وإذن، تابع، فإنني سآمر عقب كل تحويل كي أسترجع الفائض. وهذه هي الوكالة موقعة من طرف الأزعر».

منذئذ، شرع العربي نيبرو يمر عقب كل عملية ليأخذ الأموال غير المستعملة... والتي كانت تقدر بالملايين.

وبالمناسبة، سيمر غداً على الساعة التاسعة! ها أنتم الان تعرفون كل شيء. هل أنتم بحاجة إلى معلومات أخرى؟ ختم صدقي.

– نعم، قال البكري.

– أنا رهن الإشارة.

– هل تعرف أين يسكن العربي نيبرو؟

– بالقنيطرة، أعتقد.

– هل لديك عنوانه؟

– هو في الوكالة.

– هل يمكنك تسليمنا هذا العقد؟

– بالطبع. الملف على الطاولة، ها هو ذا.

– هل لديك رقم هاتف هذا المبعوث؟

– لا.

– كيف يتصل بك؟

– بواسطة الهاتف.

– أريد أن أقول، هل ترك لك يوماً رقماً؟ عنواناً؟

– لا.

– هل تعرف نوع سيارته؟

- يأتي بواسطة الطاكسي.

- صغير أم كبير؟

- صغير.

- نفس الطاكسي؟

- لا أستطيع الجزم.

- هل أخطرت الأزعر؟

- لماذا؟ أنا لا أعرف عنوانه. ثم إن كل شيء يتم كتابة.

- بما في ذلك تسليم المبالغ المالية لنيبرو؟

- طبعاً.

- هل يمكنك تمكيننا من هذه المكتوبات؟

- طبعاً. ها هي ذي الإيصالات موقعة.

- متى اتصل بك هاتفياً ليخبرك بقدومه غداً؟

- هذا الصباح.

- أية ساعة؟

- حوالي التاسعة.

- اعذرني على إزعاجك بهذه الأسئلة غير اللائقة.

- العفو. أنتم تعلمون أن الأمر يتعلق بشرف مؤسستنا، ومن واجبي ان اتعاون.

- شكراً، شكراً. قل لي. ألم تساورك شكوك حول سلوك نيبرو؟

- بلى. وبالخصوص خلال الشهرين الأخيرين.

- هل يمكنك ذكر السبب؟

اعتمل صدقي في مقعده، ونظر في عيني الضابط وأجاب:

- من حوالي شهرين، سألت نيبرو عما إذا كان بإمكاني زيارة الأزعر. بدا منزعجاً من سؤالي وأجاب إجابة تهربية، وعلى أي حال إجابة غير جادة: «أنت تعلم ان الأزعر مشغول جداً. مواعيده كثيرة. ومع ذلك فإنني سأنقل له رغبتك، حتى وإن... عل أيٍّ، أريد ان أقول، لا يمكن للقاء أن يتم قريباً. قل، هل يمكنني ان أقوم بشيء من أجلك؟ وحتى لا أخيب أملك، فإنني أؤكد لك بأنني انا نفسي أجد صعوبة بالغة في انتزاع موعد.

أجبت: ألح دائماً. من يدري. ولا أخفيك أنني سأتوجه للقنيطرة عندما تحين فرصة، وسأ...، قاطعني ناظراً في وجهي: هل تعرف عنوانه؟ قلت له بان ذلك ليس مشكلاً، فبالنسبة لرجل مشهور مثله... قاطعني من جديد: لا انصحك بذلك. ثق بي. سأهيئ موعداً مع الكاتب، عندما يكون ذلك ممكناً.

كان في غاية الاضطراب. كانت إمكانية لقاء مع الكاتب تقلقه. كان يخفي امراً».

تابع الضابط البكري:

- هل يمكنك ان تقدم وصفاً له؟

– في الخمسين. شعر مقصوص. لون أبيض. شديد البياض. هذا كل شيء.

– شكراً على هذه التوضيحات. هل انت متأكد من ان نيبرو سيمر غداً؟

– إلا في حالة طارئ.

– سأطلب منك امراً.

– أي أمر؟

– سننصب آلات تنصت، هنا في مكتبك. لا تخش شيئاً، لقد أخطرت السلطات القضائية. خذ هذا هو الإذن.

– ثم؟

– حاول ان تدفعه للكلام ما امكن، عن نفسه وعن الأزعر وعن الجمعيات الخيرية. وكي تحظى بثقته، قدم له اقتراحات مغرية، من مثل اقتراحات بتمويل جمعيات أخرى أو بالمساهمة المادية في ميزانيتها. على أي حال... إذا كان ذلك ممكنا، وإلا فاستعمل الكلام المعتاد.

– طيب.

– إذا سمحت، ستكون الفرقة كلها في المكتب الذي يوجد جنب الباب الرئيسي مستعدة للتدخل عند ادنى إشارة.

– لا مانع.

– إذا لم يكن هناك ما يمنع، نلتقي غداً عند الساعة السابعة تماماً.

– لا مشكل.

– هل يمكنني أن أطمع أيضاً في طيبوبتكم؟ أريد استعمال الهاتف.

– هو رهن إشارتكم.

أخطر البكري رئيسه والوكيل العام للملك بوضعية البحث وبطريقة الإيقاع المزمع تنفيذها.

لم يكف صدقي، وهو يرافق رجال الشرطة إلى الباب، عن ترديد: «ليقطع الله العظيم دابر الأشرار».

شعر صدقي فجأة بسوداوية التهاب عاطفي تغمره: حتى مجال الصدقة لم يستثن. ما عادت للنذالة حدود. وهكذا، فإن المشروع لن يتحقق بسعة الحلم وستتغمم صورة الإشارة.

«ثمة أمر غير عادٍ. عندما يبدي الضمير عياً تُستنفر العدالة. هذه هي الخلاصة التي يفضي إليها العقل الخالي من كل أفكار مسبقة. لم يكن للجمعية الخيرية هدفُ الربح. النزلاء هم نتيجة علاقة مختلسة، هم ثمن لحرية الجسد والروح الذي يؤديه كل مجتمع حر. فكرة الجمعية نابعة من هذا الهم: المحافظة على الحرية بمناهضة الجور.

لا حرية في احضان الظلم».

عندما أقفل صدقي الباب، كان منهكاً، منهكاً جداً، إلى درجة أنه لم يكن يريد إلا أن يعود إلى بيته.

حاول البكري في الفندق الذي أخذه زميله إليه أن يجد ترابطاً منطقياً بين الأحداث. هل الأزعر بريئ؟ كبش فداء؟ ساذج أدى حياته ثمناً لثقة زائدة وضعها في نصاب ماكر؟

حتى الآن كل الشكوك تنصب على ابن آوى الأبيض، وكل الإفتراضات تضعه محل تهمة، لكن ها هو ذا العربي نيبرو يمرق. من يكون هذا الشخص؟ ذكره هذا السؤال بالقواعد المبدئية للمهنة: التقصي. طلب من الرثمي والميري أن يلتحقا به في بهو الفندق.

جلس البكري ومساعداه حول طاولة دون أن ينبسوا. قطع الضابط الصمت:

– الرثمي، هلاً هاتفت المصلحة وطلبت بطاقة العربي نيبرو.

– لقد فعلت يا سيدي. هو غير معروف في الأرشيف. لا يقطن بالعنوان المصرح به ل«قلوب رحيمة»

طوى البكري شفتيه. لقد فهم. العربي نيبرو اسم مزيف.

– نحن، إذن، في مواجهة محترف. زائف يستغل الزائف. مفتاح اللغز هو هذا الشخص. وعلينا حتماً أن ننجح في هذه المهمة. أنتم على علم بكل شيء. في الساعة المناسبة سنلتقي في مقر الجمعية في سرية كاملة. وحتى نتمكن من ذلك، لن

نصل مجتمعين، وإنما فرداً فرداً، بعشر دقائق كفاصل، مقنعين من فضلكم في إهاب رصاص وكهربائي وصباغ، الرأس مغطىً كالعادة.

– اذهبا لتتناولا شيئاً من الطعام. نلتقي غداً عند الفطور بمطعم الفندق. ليلة سعيدة.

التحقت، في اليوم الموالي، بالفرقة الرابعة مجموعة من ثلاثة مفتشين من المصلحة الولائية للشرطة القضائية للدار البيضاء، يقودهم الضابط الذي رافق الفرقة الرابعة يوم أمس.

وضعوا، سراً، خطة التدخل: «ستتكلف الفرقة الرابعة بالتدخل، في الوقت الذي سيتموقع الضابط المساعد مع فرقة «م1» عن قرب، مستعدين للتدخل إن اقتضى الحال».

جُربت وسائل الإتصال من راديو ورموز. كل شيء على ما يرام.

تفرقت المجموعتان كما كان منتظراً. قام البكري، ليتأكد من جودة الإتصالات، بتجارب مع زميله.

– م1. كيف تستقبلونني؟

– جيد جداً، الفرقة الرابعة.

– هلاَّ عددت حتى عشرة.

– 1. 2. 3 ... 10.

- واضح جداً.

قدم صدقي، القلق بعض الشيء، قهوة لضيوفه، وهو يدعو ان تمر العملية دون مقاومة.

طمأنه البكري وكأنه قد قرأ أفكاره:

- لا تقلق. نحن معتادون. لا أحد سيستعمل سلاحه. ليس من مصلحتنا أن نقتل مفتاح اللغز. هدفنا هو توضيح جريمة، جريمة قتل الأزعر، وليس ارتكاب جريمة أخرى. كما أن رؤساءنا سيعاقبوننا إن... على أي حال، أتفهم؟

- أجل، أنا أشك في ذلك. ولتوضع كف المنون على كتف الموصي بالجريمة، تمتم صدقي.

- علَّ الله يستجيب لدعائك، آمين.

نظر الضابط في ساعته. كانت تشير إلى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة. كان قد أفرغ ثلاثة فناجين من القهوة.

شكل الإنتظار لحظات قلق حقيقي. «سيأتي الهدف، لن يأتي. ستأكل السمكة الطعم، لن تأكله. كل التدابير قد اتخذت من اجل أسر «حبة البرد»، حبة الماء المثلج التي تسقط خلال الوابل. هكذا سميت العملية بسبب السرعة التي تذوب بها حبة البرد. فهي تدل على السرعة وعلى الحيطة والدقة في التنفيذ».

تشير الساعة إلى التاسعة وخمس دقائق، والهدف لم يحضر بعد. هل أُخطر؟ لكن من طرف من؟ هل حصل له طارئ؟ مانع؟

لو كان الأمر كذلك لكان هاتَفَ صدقي، والهاتف لم يرن. فإما ان يأتي او يخبر بعدم مجيئه.

التاسعة وعشر دقائق. لم يبن له أثر. تتحول الخيبة إلى عذاب. هذا التأخير لا ينبئ بخير.

كانت الفرقة تقلى على نار الإنتظار عندما مرق «الهدف» فجأة بمكتب صدقي.

تصافح الرجلان. كان نيبرو مضطرباً جداً. حاول ان يتماسك بسرعة.

– لنمر إلى الفعل، قال.

– أي فعل؟ عقب صدقي.

صاح نيبرو، ظاهر الإثارة:

– يطلب منك الأزعر، بسبب مسك الحسابات، أن تعيد إليه الإيصالات التي وقعتها.

– الأصلية أم مستنسخة؟

– الأصلية. هل استخلصت منها نسخاً؟

– لا.

– سلمني إياها، أستنسخها فوراً وأعيدها إليك.

– لكن لنا نحن آلة استنساخ بالجمعية.

وقف نيبرو وسحب بعنف كرسياً وقع ضاجّاً، واقترب من صدقي وصاح:

– إما أن تسلمني الإيصالات فوراً وإما أن أقتلك.

– اهدأ يا سيدي. كيف سأبرر مسك الحسابات؟

– هذا مشكلك. الإيصالات بسرعة. هيا. أسرع. الوثائق.

– بصراحة ليست موجودة هنا.

– صدقي. لا تلعب بالنار. وكي أظهر لك تصميمي في الذهاب حتى النهاية، أنظر لهذا.

استل نيبرو من غمد موصول بحزام سرواله الجين، مسدس ف.ن.، بماسورة قصيرة، 7,65. فأزاح صمام الأمان وعبأه.

اقترب مهتاجاً من صدقي، ووضع ماسورة المسدس لصق وجنته اليمنى، أعلى أذن الضحية، ووضع سبابته على الزناد وهو يهمس من بين أسنانه:

– ماذا اخترت؟ الإيصالات ام الموت؟

فُتح الباب بعنف وقفز رجال الشرطة على نيبرو وجردوه، في رمشة عين، من سلاحه ثم قيدوه بالأصفاد. عندما ادار الضابط البكري وجه الرجل، فوجئ: كان ميد، زوج فرانسوار، ابن آوى الأبيض، ابن تادلة!

لم يبد ميد، المشدوه، أية مقاومة. تركهم يفتشونه دون اعتراض.

لم تستغرق المجموعة الأولى، التي أخطرت، سوى ثوان كي تلتحق بالفرقة القضائية الرابعة.

لقد انتهى ميد، الذي كان يهرب من أصوله، بأن سقط في حبال القدر. هو الذي يسعى إلى كسر قيود الفقر غرق حتى أذنيه وشُدَّ إلى مستنقع الجريمة. عندما كان حديث السن، كان يكره العامة، أي أفراد طبقته، لأنهم كانوا يقبلون بحكم القدر، لأنهم كانوا يقبلون الإستسلام. كان الوجود بالنسبة لهؤلاء الرجال والنساء رهيباً لا يحتمل: لم يكن باستطاعتهم لا أن يدينوا هذه الوضعية التي خُصُّوا بها، ولا حتى أن يتساءلوا عن كنه هذه القوة غير المدركة التي كانت توقف مجرى الأشياء والحياة. كان الناس بتادلة قدريين يقذفون الأفكار المسبقة مع تنفسهم. يحكون لبعضهم البعض نفس الحكايات في زمن مكرور، دون توقف، دون انقطاع. زمن ذاتي يُسْتَشْعر على انه خط مستقيم يتحدى أي تغيير وليد، كل محاولة لتغيير نظام الأشياء والعقليات. زمن كان يُلْحِقُ به كل جذوة تمدد تظهر في المشهد.

«العادة هنا هي في ولادة أبدية لأن الزمن غير ثابت، متشابك، تابع لضرورة لا تَخترق للبنية بمفهوم ليفي ستراوس: «طريقة يكون التغيير فيها منظماً داخل المجتمع». التغيير - الثقافي - في بلاد تادلة، ثابت: بين الفرد والمجتمع، بين المجتمع والفرد، لم يعد ثمة، البتة، فاصل، هناك التفاف لا غير».

أظلم هذا البلد الساخر في عين ميد، فغادره، وهو بعد طفل، في ليلة بلا نجوم. «كيف يصبح طفلٌ ضحيةً، في كبره، جلاداً يفتك بالأجساد ويقتل الأرواح؟ كيف يصبح حشرة قاتلة؟ بلا شفقة؟ مصاص دماء؟ هل يجب البحث في أعماق الأنا أم في طوارئ الأنا الأعلى؟ إن كشف الأسباب قد يعين على توضيح السلوك الإجرامي، على لمح محيط الحقل «المائي»، الجذر اللامرئي للمرئي».

ميد رجل مريض. هو يعلم من نفسه، من زمن طويل، أنه قادر على ارتكاب أبشع الفظاعات. لكنه لم يكن يجروً على التصريح بذلك. كان ينتظر حالماً بفرصة الإنتقام، بقتل الطيف الذي كان يطارده، يخنقه: الفقر الذي كان يبل لاوعيه ويثير عُصابه، ويكشف عن كبت يخفيه. كان، بالمعنى النفسي، قد كف عن ان يكون سوداوياً.

لم يسع ميد إلى إنكار أو خداع رجال الشرطة الذين كانوا يسألونه، أثناء نقله. أبدى كثيراً من التعاوِن. كان يبدو وكانه قد تحرر من عبء ثقيل. «الإعتراف تخلِّص، وعندما يكون مصحوباً بالدموع، فإنه يجسد الندم. هذا أمر مؤكد».

كانت الحركة دائبة في مقر الشرطة القضائية المتواضع، هذا المساء. لا أحد يعلم كيف انتشر الخبر: لقد تم كشف قاتل الأزعر وأسره. كان الجميع يؤكد الخبر، في الحانات والمقاهي ومواقف الحافلات والمحطات والأحياء الراقية أو الفقيرة، والحال ان إذاعة هذه التصريحات لم تكن قد بدأت بعد.

أخرج ميد، مساءً، من محبسه شرطيان واقتاداه إلى مكتب الضابط البكري.

حياه ميد وجلس على مقعد.

نادى البكري على المفتشين الميري والرثمي. كانت ساعة الحقيقة قد أزفت.

– السيد ميد، أنت في قبضة رجال الأمن. لقد مارست تجارة المخدرات، نشاطك الوحيد، أو لنقل نشاطك الرئيسي. هل تعترف بذلك؟

– نعم.

– متى شرعت تمارس هذا النشاط المحذور؟

– من دائماً.

– لماذا اخترت ان تعيش بالقنيطرة؟

– لأنها مدينة ليست في الواجهة، مكنتني من تعاطي هذا النشاط في سرية.

– وتزوجت فرانسوان الأرملة الفرنسية؟

– نعم.

– طيب، لماذا؟

– لأنها كانت غنية ومسنة.

- أين هي الان؟

- قتلتها ودفنتها في حديقة الفيلا.

- والسبب؟

- كانت قد أصبحت متسلطة ثم أنها لم ترد ان تموت.

- أليس هناك أسباب أخرى؟

- بلى.

- ما هي؟

- الإستيلاء على أملاكها وبداية حياة جديدة.

- هل أنت مستعد لمرافقتنا كي تدلنا على المكان الذي دفنت فيه الجثة؟

- طبعاً.

- احك لنا قليلاً كيف نفذت عملية اغتيال فرانسوان.

- كان الأمر سهلاً. هيأت العملية وحفرت القبر بنفسي أثناء وجود فرانسواز عند الأزعر. استغللت، مساءً، عدم انتباهها وخنقتها بقبضتي بالمطبخ.

ولأنها مسنة، فإنها لم تستغرق سوى بضع ثوان كي تسلم الروح.

كان الأمر أسهل وأضمن. أما استخدام سلاح، فهو عملية محفوفة من وجهة نظري، بكثير من المخاطر. كان محو الآثار،

مثلاً، سيكون صعباً. بعد ذلك، سحبتها نحو القبر.

– هل أنت نادم على ما أقدمت عليه؟

– لا.

– هل يمكنك ان تقول لنا لماذا؟

– لم يكن لي خيار آخر، كي أخرج بصفة نهائية من البؤس، ثم لماذا أشعر بشيء تجاه آدميين يسحقون مماثليهم؟

– وفكرية؟

– لنقل بأنها كانت خطيبتي. لقد تركتني. لم تعد تصلني عنها اخبار من زمان.

– لماذا تركتك في نظرك؟

– ما كان بإمكانها ان لا تهتبل فرصة سنحت لها.

– أية فرصة؟

– الزواج من إماراتي.

– هل تعرف الأزعر؟

– طبعاً. قلت لكم ذلك. كان صديق فرانسواز.

– كيف تعرفت عليه؟

– فرانسواز هي التي كانت قد قدمته إلي، أياماً بعد زواجنا.

– هل كنت تزوره في منزله؟

- طبعاً، ومرات عديدة. كان إنساناً رائعاً. وكان مثقفاً جداً وإنسانياً.

- هل كنت حدثته عن مقتل فرانسواز؟

- لا، أبداً.

- وهو، ألم يطرح عليك أبداً أسئلة حول اختفائها؟

- بلى.

- ماذا كنت قلت له؟

- أنها قد سافرت.

- ألم يبد شكاً؟

- بلى، ولهذا السبب كنت اتحاشى زيارته في منزله، إلى غاية اليوم الذي أقبل فيه باربو من كاسا برميخا.

بالمناسبة:

- من يكون هذا الباربو؟

حمحم ابن آوى الأبيض كما لو أنه يخرج من بركةِ مأساةٍ، ثم استعاد الثقة:

- هل تعدونني بنهاية أقل فظاعة؟ ظروف تخفيف مثلاً؟

وعده الضابط البكري بأن يقوم بكل ما هو ممكن قانونياً حتى يمكنه من ظروف التخفيف.

– وإذن، تابع ابن آوى الأبيض، فباربو، واسمه الحقيقي هو مكي كوهن، هو أحد كبار أباطرة المخدرات والتهريب. شبكاته تغطي كل البلد. وشبكة القنيطرة التي أنا مسؤول عنها لا تمثل سوى واحدة هامشية.

– هل يمكنك ان تقدم تدقيقات أخرى حول هذه الشبكات؟

– مستحيل. فهي مسيجة بالسرية. لا أحد يعرف الآخر. باربو وحده يحرِك الخيوط. هو وحده يعرف.

– أين تعرفت عليه وكيف؟

– كنت أحاول، من بضع سنوات، أن أنشئ شبكتي الخاصة. شرعت في البحث عن شركاء. تناهي إلى علم باربو ما أقوم به فأرسل إلي أحد الرجال الذين يثق فيهم ليتفاوض معي حول عمل مشترك. وافقت، ما دامت الإقتراحات قد كانت مغرية. سافرت إلى كاسا برميخا والتقيت بإسبان وبإيطاليين وفرنسيين وأمريكيين لاتينيين.

أخبرهم باربو بأنني الرئيس الجديد لشبكة القنيطرة، ثم أخرج خارطة للمغرب ودلني على مكان تمركز البضاعة والنقطة البحرية لتصديرها على قوارب زودياك سريعة يقودها إيطاليون.

– ما هو مكان التمركز؟

– ضيعة مكتراة غير بعيد عن مولاي بوسلهام.

– ومكان التصدير؟

– ميناء طبيعي صغير غير بعيد عن هذه القرية.

– كم مرة صدرتم البضاعة؟

– حوالي عشر مرات.

– كم من طن في كل حمولة؟

– أربعة او خمسة أطنان.

– لماذا هذه الكمية فقط؟

– كي لا نثير انتباه السلطات، كما ان قوارب الزودياك يجب أن لا تُثْقَل. إذ في حال رصدها يجب ان تختفي في المياه بأسرع ما يمكن.

– هل يمكنك ان تخبرنا بأسماء الأفراد الذين يشكلون هذه الشبكة؟

– لا أعرف سوى ألقابهم. فالإحتياطات الأمنية مرعبة.

– هل يمكنك مساعدتنا...؟

– مستحيل، فمنذ مقتل الأزعر، فروا إلى جهات مجهولة.

– مقتل الأزعر؟

– نعم، مقتل الأزعر.

– حدثنا عنه من فضلك.

قـام مـيد، بعينيه المذهولتين وبوجهه الصـارم ونفسه المتقطع، بوصف دقيق لعملية اغتيال الأزعر.

كان هو، أي ميد، الذي أقام العلاقة بين الأزعر ومكي كوهن. كان قد أخفى على الكاتب الهدف الحقيقي من العملية التي تم يهييؤها في الخفاء. لم يعرف الكاتب المسكين إلا ما أراد مكي كوهن أن يطلعه عليه: المظهر الجذاب للعمل الخيري. حتى فرانسواز كانت تجهل كل شيء عن المناورة.

أما فيما يخصني، فكان نصيبي من البيع يحول بانتظام إلى حسابي البنكي.

عندما أراد باربو أن يسترجع الأموال المبيضة، لم يجد شيئاً. أخبره المصرفي بأن كل الأموال قد حولت، مرة بعد اخرى، إلى حساب بالدار البيضاء مفتوح باسم جمعية خيرية. وهو نفس المصرفي الذي أخبرني بزيارتكم ثوان بعد مغادرتكم للوكالة. فانتقلت هذا الصباح إلى الدار البيضاء كي أخفي الإيصالات المشبوهة. وأنتم تعرفون البقية.

–من قتل الأزعر؟

–هو، باربو، مكي كوهن. وقد غادر المغرب لتوه.

–كيف؟

–عندما علم بانه قد خدع، هاتفني كي أعطيه معلومات إضافية عن المسألة. أخبرته بأنني لم أكن اعرف شيئاً وأنه إن

كان يريد أن يعرف توضيحات أوفر، عليه أن يطلب تفسيرات من الأزعر نفسه.

أتى باربو، الأسبوع الأخير، إلى القنيطرة بواسطة القطار واتجه فوراً إلى بيت الأزعر. طلب مني الإلتحاق به. كان هادئاً جداً، لا يبين عليه اضطراب.

قال لي، حوالي الثامنة، ونحن بمفردنا، بان الكاتب قد حول الأموال وأن عليه ان يؤدي ثمن خيانته. هيأ خطة لاغتياله وسألني إن كانت مفاتيح بيت فرانسواز ما تزال معي. قلت له إن بإمكاننا ان نقوم بما هو أفضل: أن نقنع الكاتب بان فرانسواز قد عادت من فرنسا وأنها تدعوه للعشاء.

وهو ما تم. لم يكن الأزعر يشك في شيء. ورافقنا.

داخل الفيلا، اقترب باربو منه، ودون أن يترك له فرصة الحديث، استل مسدساً وأطلق عليه النار عن قرب.

مات الأزعر فوراً امام أعيننا.

مسح باربو السلاح وترك لي أمر التخلص من الجثة. ثم عاد إلى الفندق.

فكرت ولم أر مكاناً أحسن من مسكن الأزعر كي أضع فيه الجثة. في خضم التبعثر لم أعثر على الرصاصة. لم أجد إلا غلافها. لم يساعدني احد. نظفت الجثة من الدم وحملتها عارية تماماً على دراجة بثلاث عجلات كانت فرانسواز قد ابتاعتها

من بضع سنوات ويمكنكم معاينتها بالفيلا.

– والسلاح الذي هددت به صدقي هذا الصباح؟

– أعطاني إياه باربو مع شحان محشو بخمس خراطيش.

– أدخل إذن سلاحين.

– تماماً.

– طيب. كل هذا واضح جداً. لكن أين كنت تختفي؟

– عند عائشة، مخبرتكم.

البكري مشدوها:

– تقول عند عائشة؟

– نعم. عندما زارها الميري والرثمي، كنت عندها، مع عشيقها الجمركي.

– أين تعرفت على هذه المرأة؟

– بالفندق، بالقنيطرة.

– كيف؟

– بواسطة الجمركي.

– فسر كلامك.

– الجمركي هو من قدم لي عائشة.

– منذ متى؟

– منذ حوالي أربع سنوات.

– هل تنتمي للشبكة؟

– لا.

– هل تعرف مهنتك؟

– طبعاً.

– هل تعرف فرانسواز؟

– نعم.

– والجمركي؟

– لم يكن يشك في شيء. قدمت نفسي إليه على انني رجل اعمال.

– من وضع غلاف الرصاصة جنب الجثة؟

– أنا. سبق أن قلت لكم ذلك.

– لماذا؟

– لأوهم بان الأمر يتعلق بانتحار.

– انتحار دون رصاصة؟

– لا تجربة لدي.

– من وضع السلاح في الراحة اليمنى للأزعر؟

- أنـا.

- هل تعترف بتحويل المال المقترف على حساب «قلوب رحيمة»؟

- نعم.

صمت الضابط البكري للحظة، قبل ان يعلن لميد، ابن آوى الأبيض، أنه، ولأسباب تتعلق بالبحث، ونظراً للقرائن الخطيرة والمتطابقة للتهم التي تنسب إليه، قد قرر الإحتفاظ به رهن إشارته.

بعد ذلك قدم تقريراً شفوياً لرئيسه وللوكيل العام للملك.

ثم أمر المفتشين اللذين يساعدهما حوالي عشرة من رجال الأمن بمباشرة عملية إلقاء القبض على باقي الفاعلين والمتواطئين.

كان مقر الشرطة القضائية، مساءً، يشبه خلية نحل.

في الثانية صباحاً، وعندما كان الجميع محبوسين في زنازينهم، طلب ميد من رجلي الأمن اللذين كانا يحرسانه الإذن بالغناء.

تمت الإستجابة لطلبه، فأنشد ابن آوى الأبيض بصوت حزين:

نشيد إلى التي ترقد في قلب الأرض

أراك في أحضـان الملائكة

في ذاكرتي، أنت تولدين من جديد كل يوم

كنت تلتمسين قليلاً من حب

ولم تحظي إلا بسراب

كنت تلاطفين هذا الحلم، ثم زحزحته

في خضم محيط هـائج بلا ضفاف

لم تحظي بغير الخيبة والخراب

عـاشقة للسعـادة، لم تستشعري في يومٍ بشرى

شرعت قلبك لوحش كـاسر

وحده « ا.ل »، الذي هو ملكك، يعلم انك ما عدت هـا هنـا

مـا يزال نَفَسُكِ يهدهده

ونظرتك تداعبه

وحبك يلاطفه

ويشعر بـأنـاملك ترتعش

استريـحي بقلب الأرض

فـأبداً « ا.ل »، الذي هو ملكك، يفكر فيك.

قلده سجنـاء بـاقي الزنـازين بحمـاس، فتحـولت البنـاية إلى

مكان حفل إنشاد، دون موسيقى.

قال أحد الشرطيين لزميله، عيناه مغمضتان:

– غريب، هناك من يغنون لأنهم سعداء وهناك من يغنون لأنهم أشقياء.

أجابه رفيقه، قبعته مائلة بعض الشيء إلى الوراء:

– هكذا هي الدنيا.

– أجل، دنيا تتقارِع فيها الأرواح المتكلسة، عقب الزميل وهو يفتح عينيه قليلاً.

– بل بالأحرى كيمياء غريبة: بؤساء ومتخمون يتهاوون تحت ضربات سيف الخوَر.

ثم اغمض الشرطي عينيه. ربما ليكف عن التفكير، وربما كي يحلم بعالم أفضل.

تم الطبع بمنشورات عكاظ – الرباط –
يناير 2003.

رقم الإيداع القانوني : 2003/0002
ردمك : 3-63-806-9981

من قتل الأزعر؟ من تجرأ على قتل هذا الكاتب ذي الأربعين سنة؟ من اقترف هذا الفعل الذميم الصادم القاسي؟

كان الأزعر، الكاتب ذو الطعم البروميثي، خليطاً من البساطة ومن الهدوء. كان، وهو الوديع الرابط الجأش، منتمياً لتلك الكائنات التي اختارت أن تكون شديدة الوضوح.

كان الأزعر - في عالم أفسدت فيه الخديعةُ الضمائرَ - قد ظل متشبثاً بجذوة الأمل، مغذياً التوهم بعالم أفضل. كان ينشد الفضيلة ويذم الـخَوَر ويناصب الميوعةَ العداءَ ويقف في وجه الجبن.

كان هذا الرجل، الجميل كربيع المغرب والضئيل في حجمه، يحمل العالم على كاهله. كان يرزح تحت الانفعال والحزن، تحت القلق والألم.

وكي يتحدث عن المرارات وحالات الضلال، اختار الخيال. وحتى يشهر بالإفساد الذي يقْرض القيم، أجهد نفسه في بذر شتائل الطيبة في القلوب التي تُركت منذورة للبوار.

من كانت له المصلحة في إسكات هذا الصوت؟ هكذا تساءل مع نفسه الضابطُ البكري الذي وضع [illegible] الفرقة القضائية الرابعة التي يرأسها، رهن [illegible] رئيس الأمن الإقليمي للقنيطرة.

الثمن